الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية

١

طبقات المجتمع

كان يتوزع مجتمع العصر العباسي الثاني ثلاث طبقات أساسية: طبقة عليا تشتمل على الخلفاء والوزراء والقواد والولاة ومن يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدولة ورءوس التجار وأصحاب الإقطاع من الأعيان وذوي اليسار، وطبقة وسطى تشتمل على رجال الجيش وموظفي الدواوين والتجار والصناع الممتازين، ثم طبقة دنيا تشتمل على العامة من الزراع وأصحاب الحرف الصغيرة والخدم والرقيق، ويأتي في إثر تلك الطبقات أهل الذمة.

وكانت الطبقة الأولى تغرق في النعيم، يتقدمها الخلفاء وكانت تجبي إليهم أموال الخراج من سواد العراق وأقاصى الدولة وأدانيها غير ما كان يجبي من المكوس على الواردات والصادرات، وعادة كان الوالي يرسل إلى بغداد ما تبقى لديه من الإنفاق على شئون إمارته وحاجتها من المساجد والبيمارستانات ومن بها من الجند والموظفين. وذكر ابن خرداذبة أن الدخل من سواد العراق لسنة ٢٤٠ للهجرة بلغ ثمانية وسبعين مليوناً من الدراهم، وبلغ دخل جزء منه في عهد المعتضد لسنة ٢٨٠ مليونين وخمسمائة وعشرين ألفاً من الدنانير[١]. وتدهور الدخل في عهد المقتدر ومع ذلك نرى خراج سواد العراق يبلغ مليوناً وخمسمائة وسبعة وأربعين ألف دينار، ويورد الصابي مع هذا الإحصاء الدخل العام لعهده في سنة ٣٠٦، ويذكر أنه بلغ أربعة عشر مليوناً وثمانمائة وتسعة وعشرين ألفاً وثمانمائة وأربعين ديناراً[٢].

وكانت هذه القناطر المقنطرة من الدراهم والدنانير تنفق سنوياً، وقلما كان يتبقى منها شيء ويقال إنه لما ولي المعتضد (٢٧٩ – ٢٨٩ هـ) ادخر من كل سنة من سني خلافته مليون دينار، وبلغ ما ادخره تسعة ملايين[٣]، وخلفه ابنه المكتفي (٢٨٩ – ٢٩٥ هـ)، فبلغ بالمدخر

---

(١) كتاب الوزراء للهلال بن المحسن الصابي ص ١٠ وما بعدها.

(٢) رسوم دار الخلافة للهلال الصابي ص ٢١.

(٣) كتاب الوزراء ص ١٨٩.

أربعة عشر مليوناً[١]. وجاء بعده المقتدر فلم يقف عن الادخار فحسب، بل أتلف كل المدخر مع ما صار إليه من أموال الخراج سنوياً ومما كانت تغله الضياع السلطانية الواسعة، حتى قالوا إنه بدد – كما مر بنا في الفصل الماضي – ثمانين مليوناً من الدنانير. ويورد الصابي في كتابيه: الوزراء ورسوم دار الخلافة إثباتاً[٢] بما كان ينفق على حواشي الخليفة وداره في عصر المعتضد والمقتدر (٢٩٥ – ٣٢٠ هـ)، وهي تصور عظم هذه النفقات، فقد كان ينفق على القصر والحرام والخدم أكثر من ستين ألف دينار شهرياً وكان ينفق على المطابخ الخاصة والعامة أكثر من عشرة آلاف دينار شهرياً، بل قد يبلغ ذلك أكثر من ثلاثين ألفاً، غير ما ينفق على البوابين من البيض والسودان وكان يبلغ ألف دينار، وغير ما ينفق على المماليك والحرس وكانوا يعدون بالآلاف، وغير ما ينفق على المرسومين لخدمة الدار من القراء وأصحاب الأخبار والمنجمين والبوقيين والمضحكين والطبالين وأصحاب الصيد والملاحين في السفن وأصحاب المشاعل والأطباء، ويقول الصابي إن نفقة ذلك كله وما يجري مجراه مما يلزم الدار كان يبلغ أكثر من مليونين وخمسمائة ألف دينار سنوياً. ويقال إنه كان في الدار لأيام المكتفي عشرون ألف غلام للحرس وعشرة آلاف خادم من السود والصقالبة، أما في أيام المقتدر فكان بها أحد عشر ألف خادم منهم سبعة من السود وأربعة من الصقالبة وأربعة آلاف امرأة بين حرة ومملوك وألوف من الغلمان الحجرية (المقيمين في الحجر)، وكانت النوبة لحفظة الدار خمسة آلاف غير أربعمائة من الحراس، كان عدد الفراشين ثمانمائة[٣]. ويروي المؤرخون أن الراضي (٣٢٢ – ٣٢٩ هـ)، عمل على القصد الشديد في نفقات دار الخلافة، حتى بلغت مع شدة الحذف والاقتصاد ثلاث آلاف دينار[٤] يومياً.

وقد بدأ العصر بالمتوكل، ويقال إن النفقات لم تبلغ في عصر من عصور الخلفاء ما بلغته في عصره، وخاصة في بناء القصور، وقد أحدث فيها البناء الموسوم باسم البناء الحيري، وكان يجعل فيه دون القصر ثلاثة أبواب عظام، وكان في الرواق مجلس الخليفة، وأمامه بيتان بهما خواصه وعلى اليمين خزانة الكسوة وعلى اليسار ما يحتاج إليه من الشراب[٥]. وكان كلما بني قصراً أتبعه بآخر، حتى بلغت قصوره نحو العشرين، وهي: بركوار (دار الهناءة) والشاه والعروس

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٩٠.

(٢) الوزراء ص ١١ وما بعدها ورسوم دار الخلافة ص ٢١ ويذكر الصابي في الكتاب الأول أن نفقات الحضرة بعهد المعتضد كانت سبعة آلاف دينار يومياً.

(٣) رسوم دار الخلافة ص ١٠ ويقال إن الخدم في عهد المتوكل كانوا سبعمائة. أنظر الديارات للشابشي (الطبعة الثانية) ص١٦٠.

(٤) رسوم دار الخلافة ص ٣٠.

(٥) مروج الذهب ٤/٤.

والبركة والجوسق والمختار والجعفري والغريب والبديع والصبيح والمليح والشبداز والقصور والجامع والقلاية والبرج والمتوكلية والبهو واللؤلؤة، وبلغ ما أنفقه على تلك القصور مائتين وأربعة وسبعين مليوناً من الدراهم[١]. وكان البرج من أجملها زينة إذ جعل فيه صور عظيمة من الذهب والفضة، وبركة جعل فرشها ظاهراً وباطناً صفائح الفضة، وشجرة ذهب على أغصانها وفروعها طيور تغرد وتصفر مكللة بالجوهر، وسميت طوبي (من أشجار الجنة). واتخذ له سرير كبير من الذهب عليه تمثالاً سبعين عظيمين ودرج عليه صور السباع والنسور. وألبست حيطان القصر من الداخل والخارج بالفسيفساء والرخام المذهب، وسيقال إن نفقة هذا القصر وحده بلغت مليوناً وسبعمائة ألف دينار[٢]. وتبارى الخلفاء بعد المتوكل في بناء القصور، فبنى المعتز ابنه قصره المعروف باسم التاج أو الساج وكان قصراً ضخماً[٣]، وبنى المعتمد (٢٥٦ – ٢٧٩ هـ) قصره المعشوق على شاطئ دجلة[٤]، وبني المعتضد قصر الثريا، وكان أبنية متلاصقة، ووصل بينها وبين قصر التاج بسرداب طويل لتمشي فيه حظاياه، وفيه يقول ابن المعتز[٥]:

وبنيان قصر قد علت شرفاته　　كصف نساء قد تربعن في الأزر

ولعل في كثرة هذه القصور ما يشير إلى أن دار الخلافة كانت وساعة، وكان القصر الواحد أحياناً يمتد إلى فرسخ أو يزيد، ويقال إن قصر الثريا كان يمتد إلى ثلاثة فراسخ وإنه كلف المعتضد – كما قدمنا في الفصل الماضي – أربعمائة ألف دينار. وكأنما كانت دار الخلافة وقصورها أشبه بمدينة، ومر بنا آنفاً عدد من كان بها في عصر المكتفي والمقتدر من الغلمان والحرس والخدم، وأنهم كانوا يعدون بالآلاف. فطبيعي أن يكون بها فلاحون وأكرة للعمل ومساجد وحمامات تفوت الحصر حتى قالوا إن الحمامات بلغت بها أحياناً أربعمائة[٦]. وكانت الدار تشتمل على بساتين وجداول متصلة بدجلة وقباب شتى وأروقة وبرك ومياه جارية.

وكان الوزراء يعيشون في هذا النعيم نفسه لما كانوا يأخذونه من رواتب ضخمة وإقطاعات وما كانوا يختلسونه لأنفسهم من أموال الدولة، ويقال إن الوزير كان يأخذ إقطاعاً يدر عليه مائة وسبعين ألف دينار، حتى إذا كان عهد المقتدر أجرى عليه راتب قدره خمسة آلاف دينار في كل

---

(١) الديارات للشابشي (الطبعة الثانية) ص ١٥٩.

(٢) الديارات ص ١٦٠ وانظر المروج ٤٠/٤.

(٣) انظر ياقوت في التاج وديوان البحتري (طبع دار المعارف) ١٤٨٣/٣.

(٤) ديوان البحتري ١٤٦٧/٣.

(٥) ديوان ابن المعتز (طبعة دار صادر ببيروت) ص ٢١٥ وانظر معجم البلدان في الثريا.

(٦) رسوم دار الخلافة ص ٨.

شهر، ثم صار سبعة آلاف[١]. ولكي نتصور مبلغ ثراء الوزراء يكفي أن نعرف أن المعتمد (٢٥٦ – ٢٧٩) استخلص – كما مر بنا في الفصل الماضي – من وزيره سليمان بن وهب وابنه عبيد الله نحو مليون دينار، ويروي أنه أحصى ما وجد لوزيره صاعد من الرقيق والمتاع والكسوة والسلاح والآلات في خاصة نفسه دون ما وجد لأخيه عبدون فكان مبلغه ثلثمائة ألف دينار، وكان مبلغ غلته في سائر ضياعه مليوناً وثلثمائة ألف[٢]. ويذكر المؤرخون عن ابن الفرات وزير المقتدر أنه كان يملك – كما ذكرنا في غير هذا الموضع – من الفضة والضياع والأثاث ما يزيد على عشرة ملايين من الدنانير. وكانت لسليمان بن وهب دار كبيرة جعلتها الدولة بعده لكل وزير حتى سنة ٣٢٠. وكانت تسمى دار المخرم، وكانت مساحتها تربو على ثلثمائة ألف ذراع[٣]. وكانت دار ابن الفرات مدينة ضخمة حتى كان بها فوجان من الخياطين[٤]، ويقال إنه لما عين وزيراً زاد ثمن الشمع في يوم تعيينه لأنه كان من رسمه ألا يخرج أحد من داره وقت العشاء إلا ومعه شمعة، وسقى في داره في ذلك اليوم وليلته أربعون ألف رطل ثلجاً[٥].

وكان للوزير بدار الخلافة بناء مفرد يجلس فيه والخواص والحواشي بين يديه إلى أن يستدعيه الخليفة، وكان يغدو إليه الكتاب، فيقفهم على الأعمال المطلوبة منهم ويسلم إلى كل كاتب ما يتعلق بديوانه يوصيه بما يريد منه، ثم يروحون إليه بما عملوا، وفي الأثناء ذلك تعرض عليه الكتب بالنفقات والتسبيبات والحسبانات[٦]، والكتاب جلوس بين يديه كل في مكانه ومع دواته.

وكان الوزير يتخذ مثل الخليفة حرساً على باب داره وقد يعدون بالعشرات[٧] وكان مجلسه يغص بغلمان مسلحين، وكان يركب إلى دار الخلافة وبين يديه الحجاب والقواد والغلمان، ويقال إنه كان لحمد بن العباس أحد وزراء المقتدر أربعمائة مملوك يحملون السلاح أمامه، ولكن مملوك نفر من المماليك والغلمان يتبعونه، ويروي بعض الكتاب أنه أحصى الموائد المنصوبة في داره فوجدها ثلاثين ونيفاً ويقال، بل كانت أربعين، وكان يجلس إلى كل مائدة ثلاثون رجلاً، وعلى كل واحدة جدى أو جداء، وبوارد وحلوى مما لذ وطاب[٨]. وكان الوزير يتولى إدارة مالية البلاد والقيام على الدخل والخرج وفرض الضرائب. واشتهر غير بيت بتوليه الوزارة مثل بيت بني

---

(١) كتاب الوزراء ص ٢٨٢، ٣٥١.

(٢) مروج الذهب ١٢١/٤.

(٣) مسكويه ٤١٠/٥.

(٤) كتاب الوزراء ص ١٧٦.

(٥) كتاب الوزراء ص ٦٣، ١٩٥.

(٦) كتاب الوزراء ص ٢٣٨.

(٧) كتاب الوزراء ص ١٢١.

(٨) كتاب الوزراء ص ١١٢ والنجوم الزهراءة ٢٠٨/٣ والهمداني ص ٢٠، ٣٧.

وهب وأصلهم من نصارى العراق، وعمل كثير منهم في الدواوين وبلغوا فيها أعلى المناصب، أما الوزارة فتولاها منهم في هذا العصر أربعة، كان في مقدمتهم سليمان بن وهب الذي مر بنا ذكره ثم ابنه عبيد الله، ثم ابن عبيد الله القاسم، ويقال إن المكتفي زوج ابنه أبا أحمد من ابنته، وإنه خلع عليه أربعمائة خلعه، أما الصداق فكان مائة ألف دينار[١]. وأنفق على الوليمة أكثر من عشرين ألف دينار[٢].

وعلى نحو ما كان الوزراء والخلفاء يعيشون في هذا الترف كان يعيش فيه أيضاً القواد، وكان بيدهم مصير الخلفاء وكانوا يفدون أنفسهم منهم بكل ما يطلبون من أموال، وكانوا يقطعونهم إقطاعات كثيرة على نحو ما كانوا يقطعون الوزراء، فكانت لهم ضياع واسعة تغل عليهم أموالاً وفيرة، ولعل خليفة لم يكثر من الإقطاع لهم كما أكثر المقتدر، ويقال إن إقطاعات يانس الموفقي في عهده كانت تغل سنوياً ثلاثين ألف دينار. وبلغ حينئذ من مكانة القواد أن خلع المقتدر على مؤنس لقب المظفر[٣]، ولما قدم بغداد في عام ٣١٢ للهجرة ركب الوزير ابن الفرات للسلام عليه وتهنئته بمقدمه[٤]، وهو ما لم تجربه عادة وزير من قبله، فقد أصبح القواد يقدمون على الوزراء. وكان لهم حجابهم ومماليكهم وحشمهم وخدمهم ونفقاتهم الواسعة على نحو ما كان للوزراء. وبالمثل كان ولاة الأقاليم، وكان حامد ابن العباس الذي مر بنا ذكره قبل توليته الوزارة للمقتدر والياً على فارس والبصرة ومن ولايتهما كون ثروته الواسعة. ويروى أن خمارويه صاحب مصر حين زوج ابنته قطر الندى من المعتضد الخليفة العباسي حمل معها من الجهاز ما لم يسر مثله ولا سمع به، وكان ابن الجصاص الجواهري البغدادي القائم على الجهاز، ويقال عنه سأله هل بقى بيني وبينك من الحساب شيء؟ فأجابه كسر (باق) طفيف وإذا هو أربعمائة ألف دينار[٥]، فما بالنا إذن بنفقات الجهاز كله. ويتوقف المؤرخون ليقصوا لنا هدايا الصفار وإلى فارس للمعتضد وما كان معها من تماثيل وملايين الدراهم وصناديق الثياب[٦]. وكان مما أرسله اسماعيل بن أحمد السامانى وإلى خراسان إلى المكتفي سنة ٢٩٢ ثلثمائة بعير عليها صناديق فيها المسك والعنبر والثياب من كل لون[٧]. وكأنما أموال الولايات ودخولها كانت ملكاً للولاة ينفقونها في بذخهم ويهدونها بحسب مشيئاتهم. وتوفى لسنة ٣٠١ على بن أحمد الراسي وكان

---

(١) النجوم ١٣١/٣.

(٢) عرب ص ٥٣.

(٣) النجوم ٢٠٣/٣.

(٤) الوزراء ص ٥٠.

(٥) النجوم ٦٢/٣.

(٦) مروج الذهب ١٤٨/٤.

(٧) النجوم ١٥٦/٣.

متولياً من حدود واسط في العراق إلى جنديسابور ومن السوس إلى شهرزور، وخلف مليون دينار ومن آنية الذهب والفضة ما قيمته مائة ألف دينار ومن الخز ألف ثوب، وخلف ألف فرس وألف بغل وألف بعير، وكان له ثمانون طرازاً (مصنع ثياب) تنسج فيها الثياب التي لملبوسه[١] وملبوس حرمه وحواشيه وخدمه.

وكان أبناء البيت العباسي يتقاضون من الدولة رواتب ثابتة، ومثلهم العلويون والهاشميون بصفة عامة، وكثيرون منهم كانوا يتولون مناصب مهمة، وكان منهم دائماً من يحج بالناس في كل عام. وكان الخلفاء ما يزالون يقطعون المقربين منهم إقطاعات وضياعاً كثيرة، بالإضافة إلى كثير من الضياع التي كانوا يرثونها عن آبائهم وأجدادهم. وكان الوزراء كثيراً ما يتقربون إليهم بالهدايا والعطايا، ويقال إن علي بن عيسى وزير المقتدر كان ينفق في كل سنة – على شحه – أربعين ألف درهم في صلات الطالبيين والعباسيين وأولاد الأنصار والمهاجرين وفي مصالح الحرمين[٢] وكان المعتضد يجري على أبناء المتوكل وأولادهم ذكوراً وإناثاً ألف دينار شهرياً، وكان يجري على أولاد الواثق والمهتدي والمستعين خمسمائة دينار في الشهر[٣].

وأعان ذلك كله على اتساع الطبقة الأرستقراطية وأن تنشأ أجيال من أبنائها غارقة في الدعة والنعيم، وفي مقدمتهم أبناء الخلفاء والوزراء والقواد والأمراء وبالمثل أبناء كبار الكتاب، وكثيراً ما كان يصل آباؤهم إلى الوزارة، وحتى من لم يصل إلى الوزارة كان يتقاضى أحياناً مائة دينار في الشهر وقد يرتفع راتبه إلى خمسمائة[٤]، غير ما كان يأتيهم من الهدايا وأحياناً من الرشوة وخاصة من عمال الخراج. وكان منصب القاضي منصباً رفيعاً، وكان يتقاضى راتباً عالياً مائة وعشرين أو مائتين من الدنانير[٥]، ومن الحق أن منهم من كان يتعفف عن أخذ شيء نظير عمله، ولكن من الحق أيضاً أن منهم من كان مترفاً موسع الرزق مثل إبراهيم بن جابر القاضي بحلب والعواصم من أرض الشام إذ يروي المسعودي أن "قطع لزوجته أربعين ثوباً تسترياً وقصباً. (حريراً) وأشباه ذلك من الثياب في يوم واحد وخلف أموالاً عظيمة"[٦].

وكان يدخل في هذه الطبقة الأرستقراطية ورثة الإقطاع والضياع الواسعة وكبار الذين كانون يتجرون برءوس أموال ضخمة في مطالب تلك الطبقة من أدوات الترف والزينة، وكان في مقدمتهم النخاسون الذين كانون يجلبون الرقيق والجواري من أطراف الأرض، وتجار الطرف

---

[١] النجوم الزاهرة ١٨٣/٣.

[٢] كتاب الوزراء ص ٣٢٢.

[٣] كتاب الوزراء ص ٢٠.

[٤] كتاب الوزراء ص ١٥٦ وانظر ص ٢٠، ٣١٤.

[٥] الولاة والقضاة للكندي ص ٣٧٧، ٤٢١.

[٦] مروج الذهب ١٧٤/٤.

النفيسة التي كانت تجلبها السفن من جميع أنحاء العالم. وبالمثل تجار الجواهر ويكفي أن نذكر ابن الجصاص التاجر الجوهري البغدادي الذي أشرف على جهاز قطر الندى بنت خماوريه كما أسلفنا، فقد هيأ لها من الثياب والجواهر وأدوات الزينة ما كلف أباها مئات الألوف، وحين صودرت أموالها لعهد المقتدر سنة ٣٠٣ للهجرة أخذ منه من المال والجوهر ما عد بالملايين حي قبل إنه بلغ ستة عشر مليوناً من الدنانير، ويقول المسعودي: والذي صح مما قبض من ماله من العين (الذهب) والورق(الفضة) والجوهر والفرش والثياب والمستغلات خمسة ملايين وخمسمائة ألف دينار[١]. وكانت كل طائفة من التجار تقيم في سوق واحد فيقال سوق النخاسين وسوق الوراقين، وكان من أقربهم إلى الترف البزازون (تجار الأقمشة) والعطارون. وكانت أسواق الأخيرين وأصحاب الدهون والخزازين (تجار الحرير) والجوهريين والصيادلة بعضها إلى جانب بعض ببغداد، وتزخر كتب طبقات الأطباء بملايين الدراهم والدنانير التي صارت إليهم من الخلفاء، ويقول محمد بن زكريا الرازي الطبيب المشهور إن سبب تعلقه بتعلم الطب إنه أصيب برمد في عينيه، فأبى الطبيب الذي عرض نفسه عليه أن يعالجه إلا بخمسمائة دينار[٢]. وحتى الشعراء والعلماء والندماء كان منهم من يغدق عليهم الخلفاء الصلات، وكذلك الوزراء، حتى ليغدرون من عليه القوم مثل على بن يحيى المنجم الذي أثرى ثراء طائلا من منادمته للخلفاء.

وإذا تركنا الطبقة العليا إلى الطبقة الوسطى وجدنا كثيرين يندمجون فيها، وفي مقدمتهم علماء العربية والفقه والتفسير والحديث، وكان كثير منهم يأخذ رواتب من الدولة، وكان منهم معلمون يختلف إليهم الناشئة، وكانوا يدفعون إليهم أجوراً قليلة، حتى لقد تكون رغفاناً من الخبز أحياناً، وكانت هذه الرغفان تختلف باختلاف أسر الصبيان في الغنى والفقر، ولذلك ضربت الأمثال في الاختلاف والتفاوت بتفاوت رغفان المعلم واختلافها في الجودة، وكان من الآباء من يدفع أجر أولاده دراهم معدودة. وكان من يعلم أولاد الطبقة العليا تنهال عليه الهبات ويقدر له راتب شهري معلوم.

ويدخل في عداد هذه الطبقة المغنون والشعراء وكان كثير منهم تتدفق عليه الأموال تدفقاً، وسنعرض لذلك في موضع آخر، والمهم أن هذا التدفق كان خاصاً بأفراد منهم ارتفعوا إلى الطبقة الأرستقراطية وعاشوا في بذخ وترف شديد، أما عامتهم فيسلكون في الطبقة الوسطى، وقد رأينا كبار الكتاب في الدواوين ينتظمون في الطبقة العليا، ولكن كان وراءهم عشرات إن لم يكن مئات يعملون في الدواوين ويأخذون رواتب متوسطة، وخاصة في دواوين الخراج ودواوين الجيش وفي أعمال الحسبة ورقابة الأسواق وفي البريد ودواوين الأخبار وفي المكوس والضرائب الجمركية.

---

(١) مروج الذهب ٢١٨/٤ والنجوم ١٨٥/٣ .

(٢) حكماء الإسلام للبيهي ص٢١.

ويضم إلى كتاب الدواوين وعمالها رؤساء الجند ممن يلون القادة، فلم تكن لهم رواتبهم الرفيعة، ولكن كانت لهم رواتب متوسطة تكفل لهم رزقاً حسناً.

ومن هذه الطبقة أوساط الصناع وخاصة من كانوا يقومون على أثاث المساكن والأزياء والطعام، ويدخل في الأثاث صناعة البسط والسجاجيد والنمارق والمقاعد والتخوت والوسائد. وكان مركز الصناعات الأسواق مثلها مثل التجارب، وكانوا جميعاً يتناولون غداءهم بمطاعم في أسواقهم أو في دكاكينهم، وكانوا لا يتركونها إلى في المساء. وكان هناك جهابذة كثيرون لاستبدال النقود ، وكانت هناك فنادق للغرباء، وكانت المساكن تستأجر وكذلك أثاثها. وإذا عرفنا أنه كان يسكن بغداد بضعة ملايين في تقدير بعض المؤرخين عرفنا كثرة من كان بها من التجار والصناع، ونجد من كبارهم من كان يربح في صفة واحدة ألوف الدنانير[١]، أما أوساطهم فقلما كان يزيد راس أموالهم في تجارتهم على ثالثة آلاف دينار[٢]، وكان الناس يودعون أموالهم لدى بعض التجار الأمناء للاتجار لهم بها مناصفة في الأرباح. ونستطيع أن نتصور مستوى المعيشة في بغداد مما يروى من أن الأسرة المتوسطة كان يكفيها شهرياً خمسة وعشرون درهماً، كأن نفقات اليوم المتوسطة لا تحتاج إلى أكثر من درهم واحد[٣]. وفي الفرج بعد الشدة للتنوخي خبر يدل على مستوى الحياة وأوسط ما كان الناس يتجرون فيه، إذ يروى عن شخص رقيق الحال أنه ورث أربعين ألف دينار فجاة وعلى غير انتظار، فبنى لنفسه داراً بألف دينار، واشترى آلات وفرشاً وثياباً وجواري ثلاثاً بسبعة آلاف دينار، وأعطى تاجراً ألفي دينار ليتجر له فيها، وخزن عشرة آلاف للشدائد، واشترى بالباقي ضيعة تغل له في كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته[٤]. وقد لا يصور ذلك حياة الطبقة الوسطى تماماً، ولكنه يشير إلى أن نفقاتها لم تكن كبيرة، وكان يعد من يقتني سبعمائة دينار صاحب ثروة كبيرة، وكثير من الصناع والتجار لم تكن ثرواتهم تزيد على ذلك، وهم الذين كانوا يندمجون في الطبقة الوسطى من الأمة.

وتأتي بعد ذلك الطبقة العامة من الرعية، وهي التي كان يقع عليها عبء العمل كله في الزراعة وفي الصناعات الصغيرة وفي خدمة أرباب القصور، فهي التي تعمل في الإقطاعات والضياع، وهي التي تقوم على تقديم أسباب الحياتين للطبقتين الوسطى والعليا، عاملة تارة أو صانعة، أو خادمة تارة ثانية. فكل ما تتقلب فيه الطبقتان من النعيم إنما هو من أيدي هذه الطبقة العامة، يسلبونه منها بطرق شتى ولا يبقون لها سوى الضنك والضيق والبؤس والشقاء. ومرت بنا

---

[١] الوزراء والكتاب الجهشاري (طبعة الحلبي) ص١٨٥ ، ٣١٩.

[٢] البخلاء للجاحظ (طبعة دار الكاتب المصري) ص١٠١ .

[٣] مصارع العشاق ص١٥٩ .

[٤] الفرج بعد الشدة للتنوخي ١٧/٢ .

في الفصل السابق ثورة الزنج وكيف أنهم كادوا يدمرون الدولة تدميراً، لشدة نقمتهم على الأوضاع التي كانت سائدة، وما كادت تخمد حتى هبت ثورة القرامطة، وعنفت بالدولة هي الأخرى عنفاً شديداً، وشاعت معها فكرة المهدي المنتظر الذي ينشر العدالة بين الناس في الأرض، ولو أن دعوة القرامطة وجهت توجيهاً سليماً على أساس العدالة التي لا تصلح حياة الناس بدونها وبيان فساد الحكم العباسي حينئذ وما داخله من جور وعسف لنجحت إلى أقصى حد، ولكنها وجهت توجيهاً خاطئاً على أساس دعوة باطنية، حتى لكأنما محي منها مقصد الإصلاح الاجتماعي، ولذلك أخفقت إخفاقاً ذريعاً.

ووسائل شتى كانت تبتز بها أعمال هذه الطبقة العامة وما بأيديها من أموال قليلة، أما من يعملون في الأرض من الأكرة والزراع فكانوا عبيداً لا يترك لهم إلا ما يسد رمقهم، وإن سده كان ذلك شيئاً كثيراً. وأما صغار الصناع والتجار الأصاغر والفعلة والفراشون والبوابون وكل من يؤلفون الطبقة العامة فقد كان مثلهم مثل رقيق الأرض لا يكادون يجدون ما يتبلغون به إلا نادراً وحين يعملون في الدولة بأجر مهما يكن طفيفاً، لأنه يضمن لهم القوت اليومي. وكان من يوجد لديه مال كأنما يقع تحت طائلة العقاب بسب كثرة الضرائب التي كانت تفرض حتى على الأسواق وما يصنع فيها وما يباع ويشتري. ومما زاد هذه الطبقة بؤساً أن الأسعار لم تكن ثابتة، فكثيراً ما كان يرتفع ثمن القمح والشعير حتى يصبح حصول العامة عليهما عسيراً وحتى لتجأر بالشكوى إلى الخليفة، على نحو ما صنع أهل البصرة في عهد المعتضد إذ أرسلوا وفداً كبيراً إليه يشكو ما نزل بمدينتهم من غلاء فاحش آملين أن يمد الخليفة لهم يد المساعدة[١].

وكانت هذه الطبقة تعمل في كل المهن الحقيرة، ومن المؤكد أن نشأت طبقات كثيرة حينئذ من الحرفيين أو المهنيين وأن التخصص أخذ طريقة إليهم، فكان لكل حرفة أصحابها الخاصون، يؤكد ذلك ما روي من أن الجاحظ لم تكن له حلقة على وجه بابه إذا أراد اصطفاقه فطلب من نجار أن يثقب له موضعها، فلما ثقبه قال له: قد جودت الثقب وأنظر أي نجار يدق فيها "الرزة[٢]" وكأن من النجارين من "كان للثقب ومن" كان لتركيب الرزة، وهو ما يعني الاختصاص الدقيق. ولا ريب في أن ذلك هو الذي أدى إلى أن تنشأ في العالم العربي من قديم فكرة النقابات للحرفيين والصناع وإن كانت حينئذ لا تعدو دور النشأة البسيطة.

وأدى بؤس هذه الطبقة العامة على أن ينشأ فيها كثير من القرادين وأصحاب الملاهي الصغيرة الطوافين والحوائين كما ينشأ فيها كثير من المهرجين الذين ينقطعون لإضحاك الطبقتين الوسطى والعليا، وكان منهم من يتصل بخليفة أو وزير فتبتسم له الدنيا. ونشأ فيها أيضاً كثير

---

[١] مروج الذهب ٤/١٤٩ .

[٢] الحيوان ٣/٢٧٦ – ٢٧٧ .

من راضة الخيل والسواس وأصحاب القنص والصيد بالكلاب. والفهود ونشأت طبقة من الأدباء المتسولين المسمون بالمكدين، وكانوا حينئذ خليطاً من هؤلاء الأدباء ومن متظاهرين بالنسك، مستعملين كل حيلة من شعر أو تقي أو رقية، فهم يطلبون المال من كل طريق، مستخدمين كل حيلة. ويدل دلالة قوية على ما كانت تعانيه هذه الطبقة العامة من البؤس والعيش المر أن كثر بها اللصوص، حتى غدوا في أوقات كثيرة مصدر خطر عظيم ببغداد، لكثرتهم، ولشدة فتكهم، ويشير الجاحظ إليهم في كتاباته مراراً كما يشير إلى رؤسائهم وأنه كانت لهم مروءة الفرسان، وكأنهم كانوا امتداداً لصعاليك الجاهلية[١].

ووراء تلك الطبقات الدنيا والوسطى والعليا كان هناك عدد ضخم من أهل الديانات الأخرى، من النصارى واليهود والمجوس والصابئة، وكانوا يسمون أهل الذمة إشارة إلى أنهم في ذمة الإسلام وعهده ورعايته وما وضعه من مبادئ التسامح الرائع، فإذا هم يصانون يحرسون ويحرس نساؤهم وأسرهم، حتى ليصبح لكل أهل ملة منهم كيانهم الخاصة فلهم معابدهم ولهم رؤساؤهم الدينيون: للنصارى مثلاً الجاثليق والبطرك. ولهم محاكمهم الخاصة التي تفصل بينهم في خصوماتهم. تسامح لم يعرفه دين ولم تعرفه أمة قبل الإسلام، ولا ظلم ولا جور، بل عدالة مطلقة عمهم وحماية بدون حدود، وليس عليهم للدولة إلا ضريبة مالية محدودة هي الجزية التي لم يكن يدفعها إلا القادر على حمل السلاح، أما المريض بعلة لا برء منها وذوو العاهات والأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين في كل ملة فلا يؤدون شيئاً، ولم تكن هذه الضريبة أو الجزية تتعدى ثلاثة دنانير لأصحاب الثراء الطائل منهم ودينارين لمتوسطي الثراء ودينار لعامتهم ممن يتكسبون كسباً لا يضيرهم معه دفعه. وكانت قيمة الدينار حينئذ نحو أثنى عشر درهماً، وهذا كل ما يدفعونه في العام المتطاول، وهو في حقيقته لم يكن سوى ضريبة دفاع عنهم، ويتراوح ما كان يؤديه أهل الذمة ببغداد في أوائل القرن الثالث بين مائة وعشرين ألف درهم ومائتي ألف[٢]، مما يدل على أن دافعي الجزية في تلك الحقب كانوا لا يزيدون على نحو عشرين ألفاً، فإذا أضفنا إليهم العاجزين عن الكسب من النساء والأطفال والشيوخ وغيرهم ممن ذكرناهم آنفاً تبين أن عدد أهل الذمة حينئذ ببغداد كان لا يقل عن نحو ستين ألفاً. وكانوا جميعاً يشدون إلى أوساطهم زنانير أشبه بأحزمة.

وكان أهل بغداد وغير بغداد من المسلمين يعاملونهم معاملة حسنة، فكانوا يوسعون لهم في كل عمل معهم، وكانت العامة تأنس خاصة للمسيحيين منهم، إذ كانوا يؤثرونهم على المجوس

---

[١] أنظر قصة خالد بن يزيد في مطالع كتاب البخلاء.

[٢] كتاب الخراج لقدامة (طبع ليدن) صـ٢٥١ وابن خرداذبة صـ ١٢٠.

ويرونهم أسلم صدوراً من اليهود، كما يقول الجاحظ في رسالته الرد[١] على النصارى، وفيها يذكر أن الخلفاء والولاة قربوهم منهم واستخدموهم في الدواوين وقاموا لهم على كثير من شئونهم وأنهم كانوا ينهضون بحرف جليلة مثل العطارة والصيرفة، وكان منهم أطباء الخلفاء والوزراء وعلية القوم وأطباء البيمارستانات، حتى استقر في أنفس الناس أن الطبيب الحاذق لا يكون إلا مسيحياً. أما اليهود فكانوا يعملون في أحقر المهن، حتى ليقول الجاحظ في الرسالة آنفة الذكر: "لا تجد اليهود إلا صباغاً أو دباغاً أو قصاباً (جزاراً) أو شعاباً (مصلح جرار وأحذية)"؛ ويقول ابن قتيبة إنهم أنتن خلق الله فناء[٢]. وكان النصارى يتخذون أخر الدواب والثياب والخدم ويتمتعون مثل العلية بلعب الصوالجة، وحتى تسموا بأسماء المسلمين مثل الحسن والحسين كما يقول الجاحظ.

وبأمر المتوكل لسنة ٢٣٥، بأن يلبس أهل الذمة كلهم الطيالس العسلية ويشدوا في أوساطهم الزنانير وأن يركبوا السروج بركب الخشب ويجعلوا على مؤخرها كرتين ومن لبس قلنسوة مثل قلنسوة المسلمين يجعل عليها زرين، وأمر أيضاً أن يجعلوا رقعتين على ثياب مماليكهم يخالف لونهما لون الثوب الموضوعين عليه، وتوضع إحدى الرقعتين على الصدر والأخرى خلف الظهر، وكل من الرقعتين بمقدار أربع أصابع ويكون لونها عسلياً، وتلبس المرأة منهم إزاراً عسلياً وأمر بهدم بيعهم وكنائسهم المحدثة وألا يستعان بهم في الدواوين وأعمال الدول، حتى لا تجري أحكامهم على المسلمين[٣].

ويبدو أنه منذ التوكل أخذت هذه الأوامر الشديدة تخفف عن النصارى حتى لنجده هو نفسه يجعل النفقة في سنة ٢٤٥ على بناء قصره الجعفري بيد دليل بن يعقوب النصراني كاتب بغا[٤]. وكثر أهل الذمة بعده في الدواوين ولعل ذلك ما جعل العامة في سنة ٢٧٢ للهجرة تثور عليهم[٥].

ويعظم أمر أهل الذمة في أواخر القرن الثالث، إذ يكثر استخدامهم في الكتابة وفي أمور المسلمين فأمر المقتدر لسنة ٢٩٦ بألا يستخدم أحد منهم إلا في الطب والجهبذة وأن يطالبوا بلبس العسلي وتعليق الرقاع المصبوغة على أظهرهم[٦]، ومع ذلك نرى وزيره ابن الفرات يتخذ منهم أربعة كتاب كان يدعوهم يومياً إلى طعامه مع خمسة آخرين اختص بهم جميعاً[٧].

---

[١] أنظرها في ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل.

[٢] أدب الكاتب لابن قتيبة (طبعة ليدن) صـ٦٦.

[٣] طبري ١٧١/٩ وانظر ١٦٩/٩.

[٤] طبري ٢٧٢/٩.

[٥] طبري ٩/١٠.

[٦] النجوم الزاهرة ١٦٥/٣.

[٧] كتاب الوزراء ص٢٠٤٥ وانظر س ٩٥.

وواضح من هذا كله ما يدل على أن أهل الذمة لم يكونوا مضطهدين طوال العصر وأن الأوامر التي كانت تصدر أحياناً بالتشديد عليهم لم تكن تنفذ، وأنهم كانوا يعملون في مختلف الأعمال حتى الوظائف الديوانية وأعمال الخراج. وكان كثير منهم- وخاصة من النصارى- يعيشون في نعيم غدقٍ لما يصير إليهم من الطب والصيرفة والأعمال التجارية المربحة.

٢

الحضارة والترف والملاهي:

رأينا تفنن الخلفاء والوزراء في بناء القصور، حتى ليشبه بعضها مدناً صغرى تمتلئ بالأبنية والأفنية والأساطين والقباب والبساتين والجداول والبرك والنافورات، مع التأنق في أبوابها ونوافذها وشرفاتها وزخرفة حيطانها بالنقوش والصور وتعليق الستائر الحريرية عليها، ومع ما يموج فيها من البسط والسجاجيد والطنافس والمناضد والتحف المرصعة بالجواهر.

وقد افتتح العصر بالمتوكل وقصوره الباذخة التي كلفت الدولة ملايين الدنانير، ويكفي لتصور ما كان في عصره من بذخ وترف شديد أن نروي ما قصه الرواة عن حفلة الذي أقامه بمناسبة إعذار (ختان) ابنه المعتز، فقد أمر وزيره الفتح بن خاقان أن يلتمس في خزائن الفرش بساطاً لإيوان قصر البركوار الذي أقام فيه الإعذار، وأن يكون في طوله وعرضه، وكان طوله مائة ذراع وعرضه خمسين، ووجد طلبته: بساطاً مذهباً مبطناً، يقال إن التجار قوموه بعشرة آلاف دينار. وبسط في الإيوان ووضع للمتوكل في صدره سرير، مد بين يديه أربعة آلاف مرفع (كرسي) مذهبة مرصعة بالجواهر وعليها تماثيل العنبر والند والكافور. ومدت الموائد وتغدى المتوكل والناس. وجلس على السرير، وأحضر الأمراء والقواد والندماء فأجلسوا على مراتبهم، وجيء بأوعية مملوءة دراهم ودنانير نصفين، صبت فيها حتى ارتفعت. ووزّع الغلمان الشراب، ودعوا كل من يشرب إلى أن يأخذ ثلاث جفنات أو ما حملت يداه من ذلك المال. وكان الناس يجمعونه في أكمامهم الواسعة ويخرجون إلى غلمانهم فيدفعونه إليهم ويعودون إلى مجالسهم. وكلما خلا وعاء مما فيه أتى الفراشون بما يملؤه من الدنانير والدراهم حتى يعود كما كان. وخلع على سائر من حضر ثلاث خلع وحملوا عند انصرافهم من الحفل على الخيل المطهمة، وأعتق المتوكل ألف رقبة، وأمر لكل عتيق بمائة درهم وثلاثة أثواب. وكان في صحن الدار بين يدي الإيوان أربعمائة جارية بين أيديهن أطباق الفواكه من كل صنف، وخمسة آلاف باقة نرجس، وعشرة آلاف باقة بنفسج. ترف لا يماثله ترف!. ونثر المتوكل على هؤلاء الجواري وخدم الدار والحاشية عشرين مليون درهم، ونثرت زوجة قبيحة أم المعتز مليون درهم على المزين ومن كانوا في جانبه من الغلمان وبعض الجنود وقهارمة الدار والخدم الخاصة من البيضان والسودان. مال ينفق ويبعثر بدون حساب، وكأنما أمسك به سفهاء، لا يعرفون حقوقاً لرعية ولا يقدرون مسئولية. وحضر الحفل كثير من الندماء في مقدمتهم ابن حمدون وابن المنجم، وكثير من الشعراء في مقدمتهم الحسين بن الضحاك وعلى ابن الجهم، وكثير من المغنين في مقدمتهم عمرو بن بانة وابن المكي وعشعث وسليمان الطبال وصالح الدفاف وزنام الزامر، وكثير من المغنيات في

مقدمتهن عريب وبدعة جاريتها وشارية وجواريها. ويقال إنه أنفق على هذا الإعذار أو الختان وثمانون مليوناً من الدراهم[١]. سفه ما بعهده سفه !

وعلى هذا النحو كانت ملايين الدنانير والدراهم تنفق بدون حساب وبدون أي رقابة في حفلات القصر، وهي حفلات أمدت القصص في كتاب ألف ليلة وليلة بكل ما يقع في الخيال الواهم من بذخ وترف لا ضفاف له، وبدلاً من أن توجه هذه الملايين إلى مرافق الشعب وحاجاته أو إلى إعداد الجيوش في حروب الترك والبيزنطيين كانت تبدد هذا التبديد الأحمق والشعب يكدح ويشقى ويسيل عرقه مدراراً ويتجرع غصص البؤس والحرمان ليعبث المتوكل وغير المتوكل ويسير عرقه فإذا قصور شماء تبنى وينفق فيها الملايين تلو الملايين، وإذا هي تستحيل إلى مقاصف يدور فيها الكاس والطاس وتنشر حمول الذهب والفضة. ويروي أن المتوكل شرب يوماً في القصر السالف ذكره المسمى بالبركوار، فقال لندمائه، ولم تكن الأيام أيام ورود ورياحين: أرأيتم إن علمنا احتفالاً بالورود أو كما نطقه بالفارسية: "شاذكلاه" فقالوا له: لا يكون الشاذكلاه إلا بالورد، وليست الأيام أيام ورد، فقال: أدعوا لي عبيد الله بن يحيى- وكان أحد وزرائه- فحضر، فقال له: أضرب لي دراهم، في كل درهم حبستان من الفضة، فسأله: كم المقدار يا أمير المؤمنين، فأجابه خمسة ملايين درهم، فأمر عبيد الله بضربها، فضربت. وأنبأ المتوكل بضربها، فقال له: أصبغ طائفة منها بالحمرة وطائفة بالصفرة وطائفة بالسواد، وأترك طائفة على حالها. فصنع عبيد الله ما أمره به، ثم تقدم المتوكل إلى خدمة وحواشيه- وكانوا سبعمائة- فأمرهم أن يعد كل منهم قباء جديداً وقلنسوة بخلاف لون قباء صاحبه وقلنسوته، ففعلوا. ثم تحين يوماً فيه ريح ن فأمر أن تنصب قبة لها أربعون باباً، فأصطبح فيها والندماء حوله، وعلى الخدم الكسوة الجديدة، وأمر المتوكل بنثر الدراهم كما ينثر الورد، طائفة طائفة، فنثرت تباعاً، وكانت الريح تحملها لخلفتها، فتتاطير في الهواء كما يتاطير الورد[٢].

وكل هذا من الفراغ ومن الترف المفرط، فإذا الخلفاء ينعمون بالحياة إلى حد السفه والهوس. وطبقات من ورائهم فتر عليها في الرزق، فهي تعيش في ضنك وضيق شديد. ولعل هذا هو السبب في أن الشعب لم يهتم أي اهتمام بما كان يجري في القصر من تحكم الأتراك في الخلفاء، كأنهم لا يعنونهم في شيء. وكل يوم يسمعون بجديد من هوسهم وسفههم، كأن يسمعوا بأن المتوكل حين انتهى من بناء قصره الجعفري استدعى مليونين من الدراهم[٣]. وبحق يقول

---

[١] الديارات الشابشي (الطبعة الثانية) ص١٥٠ وما بعدها .

[٢] الديارات ص ١٦٠ .

[٣] طبري ٢١٢/٩ .

المسعود إن النفقات لم تبلغ في وقت من الأوقات ما بلغته في أيام المتوكل [١]. وكان أكثر أبنائه على غراره من مثل المعتز، وكان يكثر من عقد مجالس الشراب في قصوره، وهو أول من ركب من الخلفاء بحلية الذهب[٢]. ولم يتوقف هذا البذخ والترف طوال العصر، ويصور ذلك من بعض الوجه استقبال المقتدر أرسل ملك الرسوم سنة ٣٠٥ للهجرة وقد جاءوا يطلبون عقد هدنة، إذ فرشت قصوره بأجمال الفرش وملئت دار الخلافة ودهاليزها وممراتها وصحونها بالجند والسلاح، وابتدأ ذلك من باب الشماسية إلى دار الخلافة، وكان عدد الجند مائة وستين ألفاً بالدروع والسلاح ومن تحتهم الخيل بسروج الذهب والفضة، وكان عدد الغلمان سبعة آلاف خادم وسبعمائة حاجب بالبزة الرائفة والسيوف والمناطق المحلاة. وكان في دجلة الشذاءات والطيارات والزبازب والشبارات والزلالات والسميريات (سفن شتى) بأفضل زينة وعلى أحسن تعبئة. وسار رسل ملك الروم ومن معهم من المواكب إلى أن وصولا إلى دار الخلافة، ودخلوا قصر الجوسق بين بستانين رائعين، ورأوا بركة عجيبة يمدها جدول وبها أربع طيارات مذهبة مزينة بالديبقي المطرز، ثم أدخلوا قصر الشجرة، وهي شجرة من الفضة كانت قائمة وسط بركة مدورة، ولها ثمانية عشر غصناً عليها الطيور والعصافير المذهبة والمفضضة تصفر، والشجرة تمايل وورقها يتحرك على نحو ما تحدث الرياح للأشجار الطبيعية، ثم أدخلوا إلى قصر الفردوس وبه من الفرش ما لا يقوم، وفي الدهاليز عشرة آلاف درع مذهبة معلقة[٣]، مما راع رسل ملك الروم روعة شديدة.

ويقوم هلال بن المحسن الصابي جرت العادة أن يكون جلوس الخليفة على كرسي مرتفع في عرش أرمي من الحرير أو من الخز وأن يلبس قباء أسود من الإبريسم (الحرير) وعلى رأسه معممة سوداء، ويتقلد سيف الرسول عليه السلام ويلبس خفاً أحمر ويضع بين يديه مصحف عثمان وعلى كتفيه بردة النبي صلى الله عليه وسلم ويمسك بقضيبه، ويقف الغلمان والخدم من خلف السرير وحواليه متقلدين بالسيوف، وفي أيديهم الطبرزينات والدبابيس (من أسلحة الحروب). وكان يقوم من وراء السرير وجانبيه خدم صقالية يذبون عن الخليفة بالمذاب المقمعة بالذهب والفضة، وتمد أمامه ستارة ديباج إذا دخل الناس رفعت، وإذا أريد صرفهم مدت. ورتب في الدار قريباً من المجلس خدم بأيديهم قسي البندق يرمون بها الغربان والطيور لئلا ينعب ناعب أو يصوت مصوت. ترف ليس فوقه ترف، حتى أذن الخليفة يحرسونها من أصوات الغربان والطيور!. وكان زي الأمراء من أهل البيت العباسي الأقبية السود، ويلبس القضاة الطيالسة

---

[١] مروج الذهب ٣٩/٤ .

[٢] مروج الذهب ٩٤/٤ .

[٣] رسوم دار الخلافة للصابي ص١١ وما بعدها والنجوم الزاهرة ١٩٢/٣ .

والقلنسوات الضخمة[١]. ويلبس الوزراء الأقبية السود وينتطقون بالسيوف وقد يلبسون دراعة وقميصاً ومبطنة وخفاً[٢]. وكان السواد هو اللباس الرسمي العام، وكانوا يلبسون في أرجلهم الجوارب والأحذية السود المشدودة بالزنانير، وفي يوم الموكب كان يحضر حاجب الحجاب بأكمل لباسه من القباء الأسود والعمامة السوداء والسيف والمنطقة، وأمامه الحجاب ونوابهم، ويجلس في الدهليز من وراء السر، ثم يحضر الوزير وقائد الجيش، ويتكامل الناس فيراسل حاجب الحجاب الخليفة، فإذا أذن الإذن العام دخل وحده حتى يقف في الصحن ويقبل الأرض، ثم يؤذن له بتقديم الناس، فيخرج ويدعو ولي العهد إن وجد، وكذلك أولاد الخليفة، إن كان له أولاد، ثم يدخل الوزير، ويمشي الحجاب بين يديه إلى مقربة من العرش، فإذا قرب تأخروا عنه، وتقدم الوزير بعد تقبيل الأرض إلى أن يدنو من الخليفة فإن مد يده إليه أخذها وقبلها وتراجع حتى يقف في يمين العرش على بعد خمسة أذرع منه، ويدخل بعده قائد الجيش أو أميره فيقبل الأرض ويقف على يسار العرش، ثم يدخل أصحاب الدواوين والكتاب، ثم القواد ونواب الحاجب على مراتبهم، ويقفون يميناً وشمالاً على رسومهم، ثم ينادي على بني هاشم والقضاة ومن يلبسون القلانس ويسلمون ويقفون منفردين، ثم يقع الإذن العام فيدخل الجند ويقفون صفين. وكل ذلك تعقيد أدت إليه الحضارة والترف وأن الناس لا يشتركون في الحكم ولا يشاطرون فيه، فتحول إلى رسوم وشكليات وآداب لا يعرفها العرب ولا يعرفها الإسلام. وكان للوزراء بالمثل مواكبهم، وكذلك كان للقواد، ويروى أن نازوك أحد قواد المقتدر كان يمشي في موكبه بين يديه أكثر من خمسمائة فراش بالشموع الموكبية سوى حملة المشاعل[٣].

وكان يرافق هذه الأبهة أبهة في المسكن والملبس والمطعم، فكانت الستور الجميلة تعلق دائماً على حيطان المسكن، وكانت تفرش أرض غرفة وممراته وصحونه بالبسط والسجاجيد، وتمتد فوقها المقاعد والوسائد والنمارق، وكانت القصور تكتظ بذلك اكتظاظاً شديداً، ويصور ذلك من بعض الوجه أن المتوكل حين غضب على عمر بن فرج الرخجي أحد كبار موظفي الدولة، وصادر أمواله، حملت فرش وأمتعة من داره على خمسين بعيراً[٤]، فما بالنا بما كان في قصور الوزراء، فضلاً عن الخلفاء، من فرش فخمة. وعلى نحو ما كانوا يهتمون بالفرش كانوا يهتمون بالثياب، حتى كانت صناعتها أهم الصناعات وأرقاها، وكان الصناع يتفننون في صنعها من الحز والديباج والحرير. ويروى صاحب الديارات أن المتوكل جلس يوماً في أحد قصوره على

---

[١] رسوم دار الخلافة ص٩٠ .

[٢] كتاب الوزراء للصابي ص٣٢٥ .

[٣] رسوم دار الخلافة ص١٠ .

(٤) طبري ١٦١/٩ .

عرش من الذهب وعليه ثياب وشي مثقلة، وأمر ألا يدخل عليه أحد إلا في ثياب وشى مثله[١]، وكان الخدم يقفون بين يديه وعليهم ثياب حمراء موردة[٢]. ويقال إن المتعين هو الذي أحدث لبس الأكمام الواسعة فجعل عرضها ثلاثة أشبار، وصغر القلانس وكانت طويلة كأقباع القضاة[٣]. وكان المعتضد يلبس الثياب الدبيقية الرفيعة التي كانت تصنع بمصر والثياب الحريرية التي كانت تصنع بمدينة تستر وغيرها من المدن الفارسية[٤]. ويروي أن إسحق بن إبراهيم المصعبي حاكم بغداد لعهد المتوكل أهدى إلى عمرو بن بانة مغني العصر عشرة أثواب خز أقلها قيمة بمائة دينار[٥]، وكان خليفته على بغداد محمد بن عبد الله بن طاهر يتأنق في ثيابه، وقيل إنه كان بينها ثوبان من الوشي قيمتهما ألف وخمسمائة دينار[٦]، ومر بنا أن الراسي والي إيران كان له مصنع خاص تنسج فيه ثيابه وثياب حواشيه وأصحابه. وكان الشعراء مثلهم مثل المغنين يلبسون الخز والوشى والثياب الحريرية[٧]. وكانوا يلبسون في الشتاء الفراء والثياب الصوفية، واشتهر ثوب باسم الممطر كان يصنع من القماش المشمع للوقاية من المطر، ونرى البحتري يسأل إبراهيم بن الحسن بن سهل ثوباً منه[٨]. ولبسوا الجوارب الصوفية والقطنية والحريرية والأحذية الحمراء[٩]. ويبدو أن الرجال كانوا يتنافسن في اقتناء الحجارة الكريمة. إذ نرى نفراً منهم حين تصادر أمواله تصادر بينها جواهر ثمينة تبلغ قيمتها ألوف الدنانير[١٠]. وكانت خزائن الخلفاء بالجواهر من كل صنف، ويذكر أنه كان عند المستعين فص ياقوت أحمر اشتراه الرشيد بأربعين ألف دينار[١١]، ويروي أن المقتدر طلب الصناديق وأوعيتها المحفوظة بالخزائن، فاختار منها مائة حبة، ونظمها سبحة يسبح بها وعرضت على تجار الجواهر فقوموا كل حبة منها بمائة ألف دينار أو تزيد[١٢].

---

[١] الديارات ص١٦١ .

[٢] الديارات ص٥٧ .

[٣] مروج الذهب ٩٤/٤ .

[٤] مروج الذهب ١٦٨/٤ .

[٥] الديارات ص٤٤ .

[٦] الديارات ص١٢٣ .

[٧] البيان والتبيين ١١٥/٣ .

[٨] ديوان البحتري (طبع دار المعارف) ٨٩٢/٢.

[٩] تاريخ بغداد ١٦٦/١١ والأغاني ٨٥/٦ .

[١٠] طبري ١٦١/٩ .

[١١] مروج الذهب ٨٣/٤ .

[١٢] طبري ٣٩٥/٩ .

وكان النساء حرائر وجواري يبالغن في أناقتهن وزينتهن، فكن يلبسن ثياب السندس والإستبرق والوشى النفيس من كل لون وكن يتجلين بالجواهر من كل صنف: من الذهب والفضة والزمرد والياقوت واللؤلؤ، وكن يتخذن منها تيجاناً وعقوداً وأقراطاً وخلاخيل، وكن يضعنها بصور مختلفة على عصائبهن ومراوحهن. ويروي أنه كان لدى قبيحة زوجة المتوكل وأم المعتز ثلاثة أسفاط: سفط مملوء زمرداً، وسفط مملوء ياقوتاً وسفط مملوء دراً كبيراً، وقومت الأسفاط فبلغت قيمتها مليونين من الدنانير. وكان النساء يتخذون أمشاطاً من الصدف والصندل[١]. وكن يتفنن في أوضاع شعورهن على رءوسهن وجباههن، وقد يلوينها على أصداغهن في هيئة حرف النون أو على هيئة العقرب، وفي ذلك يقو ابن المعتز[٢]:

لوى صدغه كالنون من تحت طرة ممسكة تزهى بعاج جبين

ويقول أيضاً[٣]:

ريم يتيه بحسن صورته عبث الفتور بلحظ. مقلته

وكأن عقرب صدغه وقفت لما دنت من نار وجنته

وكن يتعطرن بطيب المسك كما أشار إلى ذلك ابن المعتز في البيت الأول وبطيب الغالية والزعفران والعنبر. ويقال إن عريب المغنية المتوفاة سنة ٢٧٧ عن سن عالية كانت تغسل شعرها من أسبوع إلى أسبوع وتغلفه في كل غسلة بستين مثقالاً من المسك والعنبر[٤]. ويقول الجاحظ إن المرأة من الطبقة الوسطى حين كانت تهيئ ابنتها للزواج كانت تحليها بالذهب والفضة وتكسوها الثياب الحريرية وتغمرها الطيب العبق[٥]. وازدهرت حينئذ بفارس صناعة الروائح العطرية من الزهور والورود والرياحين المتنوعة.

وتفننوا في المطاعم إلى غير حد، تدل على ذلك المصنفات الكثيرة التي ألفت حينئذ في فن الطبيخ للحارث بن بسخنر (من المغنين) ولإبراهيم بن العباس الصولي ولعلى بن يحيى لمنجم ولجحظة البرمكي وغيرهم على نحو ما يشير إلى ذلك ابن النديم في كتابه الفهرست[٦]، وكان الخلفاء يأكلون في آنية الذهب والفضة، ويذكر أن المكتفي كانت تقدم على مائدته عشرة ألوان

---

[١] نساء الخلفاء لابن الساعي (طبع دار المعارف) ص١٠٦ .

[٢] ديوان ابن المعتز (نشر دار صادر بيروت) ص٤٤٠ .

[٣] الديوان ص١٠٠ .

[٤] أغاني (طبعة الساسي) ٨٧/١٨ .

[٥] البخلاء (طبعة دار الكاتب المصري) ص٢٥.

[٦] الفهرست لابن النديم (الطبعة الثانية المكتبة التجارية بمصر) ص٤٥٤.

في كل يوم سوى صنوف الحلواء[١]، وكان ما يقدم قبل الخليفة القاهر على مائدة الخلفاء من صنوف الطعام والحلواء يقدر بثلاثين دينار[٢]، ويقال إن ثمن المسك الذي كان ينفق يومياً في مطبخه عشرة دنانير[٣] فما بالنا بما كان ينفق على الطعام والحلواء والفاكهة ... وبالمثل كان الوزراء يسرفون في الإنفاق على طعامهم وموائدهم، ومر بنا أنه كان لحامد بن العباس وزير المقتدر أربعون مائدة يختلف إليها في كل غداء أفواج من الناس. ويقول الصابي في كتابه الوزراء إنه كان لابن الفرات مطبخان: مطبخ للخاصة، ومطبخ للعامة، وكان يقدم إلى الأخير يومياً تسعون رأساً من الغنم وثلاثون جدياً غير المئات من الدجاج، وكان الخبازون وأصحاب الحلواء يعملون ليل نهار. ويصف لنا الصابي مائدته الخاصة به وبأصحابه المقربين، فيقول: إنه يدعو إلى طعامه في كل يوم تسعة من أصفيائه الكتاب، وكان بينهم أربعة نصارى: "فكانوا يقعدون من جانبيه وبين يديه، ويقدم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة في الوقت من خير شيء، ثم يجعل في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف، وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعة من سفرجل وخوخ وكمثرى، ومعه طست زجاج يرمى فيه بالثفل. فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شيلت الأطباق وقد مت الطسوت والأباريق، فغسلوا أيديهم، وأحضرت المائدة مغشاة بدبيقي فوق مكبة خيازر، ومن تحتها سفرة (مفرش) أدم فاضلة عنها، وحواليها مناديل... فإذا وضعت رفعت المكبة (غطاء الآنية) والأغشية، وأخذ القوم في الأكل، وابن الفرات يحدثهم ويؤانسهم ويباسطهم. فلا يزال على ذلك، والألوان توضع وترفع أكثر من ساعتين. ثم ينهضون إلى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه ويغسلون أيديهم، والفراشون قيام يصبون الماء عليهم، والخدم وقوف على أيديهم المناديل الدبيقية ورطليات ماء الورد لمسح أيديهم وصبه على وجوههم"[٤] وكأن العباسيين لم يتركوا للمدينة الحديثة شيئاً.

وكان في بيوت الكبراء شرابي يعني بالشراب وآلته وبالفاكهة والروائح[٥]، وكان بجانبه الشواء والطباخ والخباز والخباص وهو الذي يصنع الحلوى، وفي كتاب البخلاء للجاحظ وغيره من كتب العصر أسماء أطعمه كثيرة مثلى السكباج، وهو لحم يطبخ بخل ويضاف إليه شيء من الزعفران لتطيب رائحته، والمضيرة وهي لحم ممزوج ببعض التوابل، والشبارقات وهي شرائح مشوية من

---

[١] مروج الذهب ١٩١/٤.

[٢] عريب ص١٨٣.

[٣] كتاب الوزراء ص٣٥٢.

[٤] كتاب الوزراء ص٢٤٠.

[٥] كتاب الفرج بعد الشدة للتوخي ١١/٢.

اللحم، والطباهج وهو طعام من لحم وبيض وبصل، والهريسة وهي لحم وماء وسميذ إلى غير ذلك من أطعمة كثيرة. ثم الحلوى من الفطائر والرقاق، ومنها اللوزينج، وكان يتخذ من اللوز والدقيق والفستق ويرش بماء الورد، ومنها الفالوذج وهو حلوى من النشا وعسل النحل والسمن، والخشكنان وهو كعك يحشى بالجوز والسكر. ثم الأشربة ومنها الجلاب وهو شراب ممزوج بماء الورد. وكانت تقدم مع الطعام المشهيات ويسمونها النقل، وكانت تتألف- كما في عصرنا- من أشياء حريفة. وكتبوا كثيراً عن آداب الطعام نجد ذلك منثوراً في كتاب البخلاء للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة وأدب النديم لكشاجم وكتاب الموشى للوشاء، وفيه فصل طريف عن زي الظرفاء في الطعام.

وكانوا يفصلون وقت الشراب عن وقت الطعام، وفيه يكون السمر، ودائماً نجد الندماء، وكان لكل خليفة ندماؤه من العلماء والمنجمين والأطباء ومن يوردون النوادر والفكاهات ومن يعرفون كيف يرضونه في ساعات صفوة وساعات سخطه، وكانت تغمرهم الصلات السنية على نحو ما يروي عن علي بن يحيى المنجم وما قيل من أنه وصله من المتوكل وحده ثلثمائة ألف دينار، وكان نديماً ممتازاً، فهو شاعر وطبيب وأديب ومضحك وصاحب نوادر. وتخصصت أسرة حمدون بهذه الصناعة، وهي من سلالة حمدوية صاحب الزنادقة في عصر المهدي، فكان إبراهيم بن حمدون ينادم المعتصم ثم الواثق ولحق عصر المتوكل، وكان ينادم المعتمد منهم أبو محمد بن حمدون، أما أبو عبد الله أحمد بن حمدون فكان ينادم المتوكل وغيره من الخلفاء، ويقال إن المتوكل وصله في مدة خلافته بثلثمائة وستين ألف دينار وإن المستعين وصله بأكثر مما وصله به المتوكل[١]. ونجد في بلاط المتوكل كثيرين من الندماء، ومنهم أبو العبر وأبو العنبس الصيمري الذي قلد أمامه البحتري في إنشاده الشعر تقليداً مضحكاً. وكان المعتمد كثير الندماء مثل المتوكل، وفي مروج الذهب حديث دقيق لبعض ندمائه عن آلات الطرب والغناء والرقص، ويقول المسعودي بعقب ذلك: "وللمعتمد مجالسات ومذاكرات ومجالس في أنواع من الأدب، منها مدح النديم وذكر فضائله"[٢]، ولابد أن يكون كشاجم استفاد في كتابه "أدب الندم" من ذلك فوائد كثيرة. وكان المعتضد يفرد حجرة للندماء، ليستدعيهم منها، وكان لكل منهم نوبته أو دوره[٣]. واشتهر الراضي بأنه كان يوسع في مجالسه للندماء "ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه في أي يوم إلا بصلة أو خلعة أو طيب، منهم محمد بن يحيى الصولي وواحد من بني حمدون"[٤].

---

[١] معجم الأدباء (طبع القاهرة) ٢/٢١٧.

[٢] مروج الذهب ٤/١٣٨.

[٣] تاريخ بغداد ٧/٣٨٠.

[٤] مروج الذهب ٤/٢٤٤.

وكان للوزراء ندمائهم، بل كان أيضاً لعلية القوم وكبار الموظفين في الدولة، ويكفي أن نعرف مثلاً أحمد بن المدبر كان له سبعة ندماء لا يأنس بغيرهم ولا ينبسط إلى سواهم[١]، ومن المؤكد أن وظيفة هؤلاء الندماء هي التي دفعت الجاحظ إلى كتابة مصنفة البخلاء للتسلية والتندير، وكثر من حوله التأليف في المغفلين وأصحاب النوادر والفكاهات[٢].

وكانوا يشغفون- وفي مقدمتهم الخلفاء- بضروب كثيرة من الملاهي، ويقال إن مجالس المتوكل كانت تمتلئ باللعب والهزل[٣]، وممن كان يعجب بهم أصحاب السماجة أو كما نقول الآن التمثيل الهزلي، الذين كانوا يقلدون الناس في حركاتهم وأصواتهم[٤]. وكان هو وخلفاؤه كثيراً ما يتفرجون على نطاح الكباش والديكة[٥] وتواثب السباع والفيلة. ويحكي عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أن المعتز استدعاه، حتى إذا كان بمجلسه اسمعه غناء شارية وزمرزنام، وأراه آلة عملها أحمد بن موسى الخوارزمي، من نحاس يرسل فيها الماء فيسمع لها زمر السرناي (آلة من آلات الطرب)، ثم أدخله إلى نافذة رأي منها الفيل والسبع كيف يتواثبان[٦]. ومن أهم ملاهيهم لعبة الشطرنج، وكان من يحسنها تفتح له أبواب الخلفاء والوزراء والكبراء مثل أبي القاسم التوزي الشطرنجي، ومثل محمد بن يحيى الصولي، ويقال إن المكتفي استقدمه حين علم بإحسانه لعبة الشطرنج، وجعله يلعب بين يديه مع لاعب آخر كان مشهوراً بلعبه هو الماوردي، ولكن الصولي قهره وغلبه[٧]. ويحدثنا المسعودي بعقب ذكره ذلك عن الشطرنج وكيف أنه كان يلعب على رقعة أدم مربعة حمراء، ويعرض لآلاته وأنواعها واختلاف هيئاتها، فيذكر بجانب الرقعة المربعة السالفة رقعة مستطيلة ورقعة مدورة ورقعة نجومية وتسمى الفلكية. ويقول المسعودي إنه استحدثت في زمانه رقعة للشطرنج تسمى الجوارحية، سموا كل بيت من أبياتها باسم جارحة من جوارح الإنسان، ويقول إن للاعبيها وهواتها فنوناً من الهزل والنوادر البديعة. وكانوا يقامرون ويراهنون في لعبة الشطرنج، وكذلك في لعبة النرد (الطاولة) وكانوا يلعبونها عادة على رقعة بها أربعة وعشرون منزلاً بثلاثين حجراً وفصين يجري بهما اللعب كما هو معروف في عصرنا. وكان

---

[١] مروج الذهب ٤/١٦٣.

[٢] الفهرست ص٤٤٩.

[٣] مروج الذهب ٤/٤.

[٤] الديارات ص٣٩.

[٥] مروج الذهب ٤/١٠٣.

[٦] الديارات ص١١٠ ومعروف أنه كان بدار الخلافة منذ المعتصم حظيرة للحيوان تسمى حير الحيوان. أنظر الأغاني (طبعة الساسي) ١٠/١٣٠.

[٧] مروج الذهب ٤/٢٣٢.

إبراهيم بن المدبر وزير المعتمد مشغوفاً به وكان ماهراً فيه، فكان يطلب بلعبه القمار وكسب الرهان، ويروي صاحب الديارات أنه ربح من شخص ذات يوم عشرين ديناراً[١].

ولعل ملهى لم يشغل الناس كما شغلهم الغناء، وسنعرض لذلك في موضع آخر، وكثيراً ما كانوا يتجمعون في تلك الحقب للفرجة على سباق الخيل، حتى كانت أيامه أشبه بأيام الأعياد. وكذلك كان اللعب بالصوالجة على الخيل، حيث تضرب كرة ويتقاذفها الخيالة والفرسان، وكانت في دور الخلفاء ميادين خاصة لتلك اللعبة[٢]، وكان يلعبها الخلفاء والوزراء والقواد وحواشيهم، ويروي أن عبيد الله بن يحيى ابن خاقان وزير المعتمد دخل ميداناً في داره يوم جمعة ليضرب الصوالجة مع بعض غلمانه، فركب فرسه، وثقل، فصدمه غلامه رشيق، فسقط عن فرسه ميتاً[٣]. ويصور ابن قتيبه هذه اللعبة والتفوق فيها، فيقول إن الضارب يضرب الكرة بالصولجان خلسة من تحت مخزم الدابة تلقاء لبتها، وعليه أن يحسن كف الدابة في شدة جريانها متوقياً من الصرعة والصدمة المفاجئة.

وكانوا يخرجون للصيد والقنص أفواجاً. واشتهر غير خليفة بالخروج له ومعه الكلاب الصقور والفهود، وكان من أشد الخلفاء شغفاً به المعتضد "وكان كالمعتصم في أكثر أموره ومآربه وأشبه به من ستائر بيته وبنيه من الخلفاء في محبته لمباشرة الحرب والصيد وما أشبههما، ولم يكن ينفك من حرب إلا إلى صيد ولا من صيد إلا إلى حرب، وكان يخرج لصيد الأسد، فيخيم عليها حتى لا يبقى منها باقية"[٤] وكان ابنه المكتفي مشغوفاً مثله الصيد وكان أكثر ما يدمنه الصيد بالفهد والعقاب، وهما سبعا الضواري والجوارح، ويباشر ذلك بنفسه ويمتهنها فيه لشدة الشغف به والارتياح إليه"[٥]. ومنذ أبي نواس والشعراء يكثرون من النظم فيه بجميع صوره، ويعرض كشاجم آلاته عرضاً مفصلاً في كتابه المصايد والمطارد، كما يعرض روائع ما قيل فيه من أراجيز وأشعار كانوا يسمونها الطرديات. ومن طريف ملاهيهم المهارشة بين القردة والفيلة[٦].

وكانت العامة تجد تسليتها المحببة عند قصاص كانوا منتشرين في طرقات بغداد وكانوا يقصون عليها نوادر الأخبار وغرائبها، ويبدو أنهم كثروا كثر مفرطة حتى لنرى المعتمد يأمر في سنة ٢٧٩ بالنداء في بغداد ألا يقعد على الطريق ولا في المسجد الجامع قاص ولا صاحب نجوم

---

[١] كتاب الديارات ص١١.

[٢] كتاب الوزراء ص١٣٨.

[٣] النجوم الزاهرة ٣٨/٣.

[٤] المصايد والمطارد لكشاجم (طبع بغداد) ص٥.

[٥] المصايد والمطارد ص٧.

[٦] الحيوان ٦٢/٧.

ولا زاجر[١]. وكان اللعب بخيال الظل معروفاً حينئذ، وكان يعتمد على الهزل والسخرية والإضحاك[٢]. وكان هناك كثير من المضحكين الذين يتفننون في طرق الهزل، وكان كثير منهم يخلط هزل بحكاية لهجات النازلين ببغداد من الأعراب والخراسانيين والزنوج والفرس والهنود والروم أو يحاكون العميان، وكأنما يجمع الحاكي سمات من يحكيه جميعاً، وقد يحاكون بعض الدواب وخاصة الحمير[٣]. ومن أشهر هؤلاء الحكائين المضحكين لعصر المعتضد ابن المغازلي، وكان يتكلم على كل الطريق ويقص على الناس أخباراً ونوادر ومضاحك، وكان في نهاية الحذق لا يستطيع من يراه إلا أن يضحك، وكان لا يدع حكايته لأعرابي أو مكي أو نجدي أو تركي أو نبطي أو زنجي أو سندي إلا حكاها، وكان يخلط ذلك بنوادر تضحك الثكلى، وسمع به المعتضد فأحضره، فما زال يذكر له نوادر وهو متماسك، حتى أخرجه عن طوره ووقاره إلى الضحك، فضرب بيده وفحص الأرض بقدمه، واستلقى من كثرة الضحك وغلبته عليه[٤].

---

[١] طبري ٨/١٠، ٥٤ والنجوم الزاهرة ٨٠/٣.

[٢] الديارات ص ١٨٧ وما بعدها .

[٣] البيان والتبيين ٦٩/١.

[٤] مروج الذهب ١٦٣/٤.

٣

الرقيق والجواري والغناء:

كان الرقيق منتشراً في كل مكان، في القصور وفي الأكواخ وفي الصناعات وفي الزراعة، وكان كثيراً كثرة مفرطة، فمنه السندي ومنه الإفريقي الزنجي والحبشي والسودان ومنه التركي والصقلبي، ومنه الصيني والخراساني والأرمني والبربري،وكأنما كانت تجتمع فيه كل الأجناس. ومع أن الإسلام قصر الرق على من يؤخذ في الحرب أسيراً كافراً، فقد مضى المسلمون- محاكين شعوب العالم القديم- يفسحون للتجارة فيه وجلبه من البلاد الأجنبية، وكأنهم لم يستطيعوا أن يبطلوا هذه العادة عند الأمم المغلوبة كما كان منتظراً، بل لقد شاركوهم فيها. ولم تلبث تجارة الرقيق في ديار الإسلام أن أصبحت ذات شأن عظيم، حتى ليبني لها في كل مدينة كبيرة سوق خاصة يقوم على مراقبتها موظف يسمى قيم الرقيق. ويذكر اليعقوبي أن سوق سامراء في القرن الثالث الهجري كانت مربعة، وبها طرق متشبعة، وفيها الخمر والغرف والحوانيت [١].

ومعروف أن الإسلام عمل على تحرير الرقيق بوسائل شتى، إذ جعله فداء لأعظم الجنايات مثل القتل خطأ وأخفها مثل الحنث في اليمين، وأباح للعبد حق التملك وأن يكاتب صاحبه عل جزء من المال يدخره من العمل، حتى إذا وفاه ردت إليه حريته. واستطاع كثير من الأرقاء المحررين أن يصلوا على أعظم المناصب في الدولة، وكان من هؤلاء الأرقاء من يتمتعون بجاه عظيم مثل قاد الترك طوال العصر، غير أن جمهوراً كبيراً منهم كان يعامل معاملة سيئة، وخاصة الزنوج الذين كانوا يقومون بأعمال الحرث والزراعة في البصرة، مما جعلهم يثورون لعصر المعتمد- كما مر بنا- ثورة عارمة. ولا ريب في أن هذه المعاملة السيئة تخالف روح الإسلام مخالفة صريحة، لا من حيث استرقاق الناس بالشراء لا بالحرب فقط، بل أيضاً من حيث أخذهم بالعنف والعسف والظلم، فقد دعا القرآن والحديث جميعاً إلى الإحسان للأرقاء والبر بهم والمعاملة الكريمة على نحو ما يلقانا في آية سورة النساء: (وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى... وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً)، وفي الحديث النبوي: "شر الناس من أكل وحده ومنع رفده (عطاءه) وضرب عبده"، وفيه أيضاً: "العبيد إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكفلوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم"، وكانت الجارية بمجرد أن يستولدها سيدها تصب أم ولده، وليس له حق بيعها، وابنها حر مثل أبيه، وبمجرد موت سيدها تصبح حرة. وفي مواضع كثيرة من القرآن والحديثة نجد الدعوة قوية إلى تحرير العبيد، ولذلك كان كثيراً ما يوصى الرسول من ملكوهم

---

[١] جغرافية اليعقوبي ص٢٥٩.

بعتقهم بعد موتهم، ويرى أن المعتصم أوصى بعد موته بعتق ثمانية آلاف من مماليكه، ومثله كان يصنع الوزراء والكبراء من الأمة.

على كل حال كان الأرقاء كثيرين كثرة مفرطة، وكان أهم ما يقومون به في المدن الخدمة، ويقول المسعودي أن الخدم كانوا عادة من السودان أو الصقالبة أو الروم أو الصين[١]. ويبدو أن جمهورهم كانوا من الخصيان، ومع أن الإسلام حرم الخصاء تحريماً باتاً نجد الخصيان منتشرين في العالم الإسلامي انتشاراً واسعاً. وكانوا يخصون خارج حدود الدولية الإسلامية: في بيزنطة وأواسط آسيا، ثم يجلبون ويباعون في أسواق الرقيق بغداد وغير بغداد، ويتردد ذكرهم كثيراً منذ أواخر القرن الثاني الهجري. "وكانت انتشارهم باعثاً على أن تلبس بعض الجواري المسمين بالغلاميات ملابسهم، وترتبط بذلك حادثة مشهورة فإن زبيدة أم الأمين حين رأته يستكثر من الخصيان اتخذت الجواري المقدودات الحسان الوجوه، وعممت رءوسهن، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية (صور من تجميل أوضاع الشعر على الرأس تشبهاً بالفتيان) وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق (ملابس الفتيان) فماست قدودهن وبرزت أردافهن، وبعثت بهن إلى ابنها الأمين، فاختلفن بين يديه، فاستحسنهن، واجتذبن قلبه إليهن وأبرزهن للناس"[٢] فقلده كثير من أهل بغداد، وظل ذلك من بعده حتى عصر الخليفة القاهر المتوفى سنة ٣٢٢ إذ يروي بعض الإخباريين أنه رأى في قصره جواري يلبسن القراطق والأقبية والطرر ومناطق الذهب والفضة [٣].

وكثرة الخصيان هي التي هيأت لظهور هؤلاء الغلاميات، ويكفي أن نذكر ما قاله المؤرخون من أنه كان في قصر المقتدر أحد عشر ألف غلام خصي[٤]. ومنذ أواسط القرن الثالث أخذ الناس- احتراماً لمن صارت إليهم مقاليد الأمور منهم، وخاصة من الترك- يسمون الخصي الخادم والأستاذ[٥]. ولم يكونوا يستطيعون التعرض للخصيان البيض خوفاً من الترك وبطشهم، أما السود فكانت العامة تكثر من الصياح بهم: يا عقيق[٦]. ويروي المسعودي أن الخدم السود جأروا بالشكوى إلى المعتضد لما يلحقهم في الأزقة والشوارع والدروب وسائر الطرق من الصغير والكبير من العوام إذ كانوا جميعاً يصيحون بهم: " يا عقيق صب ماء واطرح دقيق يا غاق

---

[١] مروج الذهب ١٥٨/٤.

[٢] مروج الذهب ٢٢٦/٤.

[٣] مروج الذهب ٢٢٧/٤.

[٤] النجوم الزاهرة ٢٣٤/٣.

[٥] مروج الذهب ١٧٨/٤ ، ١٨٠.

[٦] طبري ٥٣/١٠.

(صوت الغراب) يا طويل الساق"[١]. وكان المضحكون الهزليون في الطرق كثيراً ما يحاكون الخدم المختلفين وأصواتهم[٢].

وكانت الإماء والجواري في الدور والقصور أكثر من الخصيان وأرقاء الرجال، إذ أباح الإسلام للمسلم أن يمتلك ما شاء من الجواري والإماء، وكثير من الرجال كانوا يفضلونهن على الحرائر، لأنهن كن من أجناس وأشكال مختلفة، ولم يكن بينهن وبين الرجال حوائل الحجاب مثل الحرائر اللائي يقترنون بهن وهم لا يعرفون من أمرهن شيئاً، بخلاف الجارية فإنها كانت معرضة لهم في دور النخاسين، فكانوا يختارونها بحسب مشيئتهم وموقعها في أنفسهم، بخلاف الحرائر فقد كان الحجاب يحول بينهم وبين التعرف عليهن، وكانوا يضطرون لاتخاذ دلالات يصفونهن لهم، وقلما يتطابق الوصف مع الحقيقة. وكان بين الجواري المعروضات للبيع دائماً كثير من الفاتنات الفارسيات والخراسانيات والأرمنيات والتركيات والروميات، فكن يستأثرن بقلوب الرجال. ومن أجل ذلك لم يكونوا يعددون زوجاتهم، فقد كفاهم اتخاذ الجواري والإماء هذا التعدد، وأكبوا عليه إكباباً.

وكان إمامهم في ذلك الخلفاء فإنهم أكثروا من الجواري كثرة مفرطة، حتى ليروي أنه كان لدي المتوكل منهن أربعة آلاف جارية[٣]، وهي رواية مبالغ فيها، غير أنها تدل على ما ثبت لدى الناس من كثرة جواريه، ويقال إنه لما أفضت إليه الخلافة أهداه عبيد الله بن طاهر هدية فيها مائتا وصيف ووصيفة، وكان في الهدية محبوبة[٤]. وكانت شاعرة مغنية فوقعت عنده أعظم موقع واقترن بها، ووفت له بعد موته وفاء منقطع النظير. وظلت هذه السيول تتدافع إلى قصر الخلافة طوال العصر من كل قطر، ويروي أن زيادة الله بن الأغلب أهدى المكتفي حين ولى الخلافة مائة وخمسين جارية[٥]. ولعلنا لا نعجب بعد ذلك إذا عرفنا أن أمهات الخلفاء في العصر كن من الجواري، وخاصة جواري الترك والروم، كن يتدخلن في شئون الحكم، فكل جارية تحاول أن تقيم في المناصب العليا أقرباءها والمقربين منها، على نحو ما كانت تصنع أم المقتدر بأخرة من العصر، حتى فسد الحكم لعهده فساداً لا يمكن إصلاحه، وفسحت لأخيها الرومي المسمى غريباً في النفوذ والسلطان، فزاد الطين بلة، وزاد بلة ثانية بما أتاحت لقهرمانتها أم موسى من إسنادها نقابة بني هاشم لأخيها، وأتاحت لقهرمانتها الثانية تمثل- كما مر بنا في غير هذا الموضع- أن تقعد في الرصافة كل يوم جمعة للنظر في المظالم.

---

[١] مروج الذهب ٤/١٧١.

[٢] مروج الذهب ٤/١٦٣ ، ١٦٤.

[٣] مروج الذهب ٤/٤٠.

[٤] أغاني (ساسي) ١٩/١٣٢ ونساء الخلفاء لابن الساعي ص٩٢.

[٥] مروج الذهب ٤/٢٠٠.

وكانت الجارية الجميلة تباع بألف دينار وأكثر، وكان الناس يغدون ويروحون إلى سوق الرقيق ودور النخاسين يتفرجون على الوافدات الجديدات من الجواري الفاتنات، وكان النخاسون يجمعون منهن كثيرات، حتى لقد كانت رءوس أموالهم تبلغ الألوف، ويقول ابن المعتز عن نخاس منهم يسمى أحمد بن الحارث إنه كان يجتمع أحياناً عنده من الرقيق ما يبلغ مائة ألف دينار[١]، ويذكر أبو الفرج الأصبهاني عن نخاس يسمى أبا عمير أنه كان له جوار لهن ظرف وأدب، وكان ابن البواب الشاعر يألف جارية منهن يقال لها عبادة ويكثر غشيان منزل أبي عمير من أجلها فأصابه ضيق شديد، فانقطع عن زيارتها ثم نازعته نفسه إلى لقائها وصعب عليه الصبر عنها، فأتى عبادة، ووجد الجارية ورفاقه يعاتبونه على تأخره عنه وعن صاحبته، ولم يلبث أن أنشأ يقول:

لو تشكي أبو عمير قليلاً ... لأتيناه من طريق العيادة

فقضينا من العيادة حقاً ... ونظرنا في مقلتي عباده

فقال أبو عمير: مالي ولك يا أخي، أنظر في مقلتي عبادة متى شئت غير ممنوع، ودعني أنا في عافية لا تتمن لي المرض لتعودني[٢]. وواضح من امتناع ابن البواب عن زيارة أبي عمير حين ألمت به ضيقة أن الشعراء وغيرهم حين كانوا يختلفون إلى دور النخاسين كانوا يحملون معهم كثيراً من الهدايا للنخاسين وجواريهم، مما كان يكلفهم أموالاً كثيرة، وإلى ذلك يشير الجاحظ في رسالته عن القيان إذ يذكر عن النخاس "أن من فضائله أن الناس يقصدونه بالرغبة كما يقصد بها الخلفاء والعظمات فيزار ولا يكلف الزيارة، ويوصل ولا يحمل على الصلة، ويهدي إليه ولا تقضى منه الهدية"[٣]. ويصور الجاحظ تفنن الجارية في اللعب بألباب الرجال، إذ لا تزال تنصب أشراكها باللحظ والتبسم وإظهار الشوق إلى طول مكث من يختلف إليها والحزن لفراقه والصبابة لسرعة عودته، فإذا أحست أنه وقع في الشرك أوهمته أنها تعلقت به وأنه شجوها في فكرها وضميرها وليلها ونهارها وأنها لا تريد سواه ولا تؤثر أحداً عل هواه وأنها لا تبتغيه لماله وهداياه وإنما لنفسه، ثم جمشته بعضوض تفاحها وتحيات من ريحانها وزودته بخصلة من شعرها وقطعة من ثيابها، يقول الجاحظ وربما زارته في بيته وأمكنته من القبلة فما فوقها. لذلك لا نعجب حين نراهن يسعرن قلوب الشعراء، وحين نرى الشعراء عاكفين عليهن وقد بذلن لهن كل ما

---

[١] طبقات الشعراء لا بن المعتز (طبع دار المعارف) ص٤٢٦.

[٢] أغاني (ساسي) ٢٠/٤٣.

[٣] رسائل الجاحظ نشر فنكل ص٧٣.

استطاعوا من هدايا وتحف وطرف نفيسة، وفي ذلك يقول على بن الجهم متحدثاً عن جواري نخاس يسمى المفضل وابتزازهن وابتزاز صاحبهن أموال من يزورونهن[١]:

أوانس ما فيهن للضيف حشمة ولا ربهن بالمهيب المبجل

يسر إذا ما الضيف قل حياؤه إذ نال حظاً من لبوس ومأكل

لك البيت ما دامت هداياك جمة ودامت ملياً بالشرب المعسل

وكأن دار النخاس تعد "باراً" كبيراً وجواريه ما يزلن يختلفن إلى رواده. وكان كثيرات منهن مثقفات بفنون الآداب، فكن يجذبن الرجال والشباب والشعراء بجمالهن وعذوبة حديثهن، بل كان منهن كثيرات يحسن نظم الشعر مثل فضل الشاعرة ومثل محبوبة جارية المتوكل.

ولم يكن المجتمع العباسي يعني بفن كما كان يعني بالغناء والموسيقى، ويتضح ذلك من كثرة الكتب المترجمة منذ مطالع العصر في الفن الموسيقي على نحو ما يتضح في أوائل ترجمة إسحق الموصلي في كتاب الأغاني وكذلك ما ساقه منها كتاب الفهرست لابن النديم، ولم يلبث العرب أن شاركوا مشاركة قوية في هذا التأليف منذ الخليل بن أحمد صاحب العروض المتوفى سنة ١٧٠ للهجرة. ويتكاثر هذا التأليف في القرن الثالث، وخاصة في بيئة المتفلسفة مثل الكندي وله في الموسيقى كتب مختلفة[٢]، وكذلك لتلميذه[٣] أبي الطيب السرخسي ولقسطا[٤] بن لوقا البعلبكي، فلكل هؤلاء مؤلفات في الموسيقى أحصاها ابن النديم في فهرسته. وخلف من بعدهم الفارابي بأخرة من العصر فأربى على كل سالف وخالف من اليونان والعرب جميعاً على نحو ما يتضح في مصنفه كتاب الموسيقى الكبير، وقد استطاع أن يدخل تحسينات على آلة القانون الإغريقية. وعلى نحو ما يسوق ابن النديم كتب المتفلسفة في الموسيقى يسوق كتب المغنين فيها وفي الغناء والمغنين والمغنيات، ولإسحق الموصلي في ذلك نشاط واسع، ومن اشهر من خلفوه في القرن الثالث على التأليف في هذا الفن بذل[٥]، وكان لها كتاب في الأغاني يشتمل على أثنى

---

[١] ديوان ابن الجهم (نشر المجمع العلمي العربي بدمشق) ص٥٢.

[٢] الفهرست ص ٣٧٣.

[٣] الفهرست ٢١٩ ، ٣٨٠.

[٤] الفهرست ص ٤٢٤.

[٥] الأغاني (ساسي) ١٣٨/١٥.

عشر ألف صوت، ودنانير البرمكية ويقول أبو الفرج لها كتاب مجرد في الأغاني مشهور[١]، وممن ذكرهم ابن النديم النصبي وله كتاب في الأغاني ألفه على حروف المعجم للمتوكل[٢].

ومنهم جحظة وله كتاب في الطنبوريين[٣]، ويذكر أبو الفرج أن لعمر وبن بانة كتاباً في الأغاني يعد من الأصول المهمة فيها[٤]، كما يذكر أنه كان لأحمد ابن يحيى المالكي كتاب سماه المجرد في الأغاني كان يحتوي على أربعة عشر ألف صوت[٥]، وكان لمحمد بن علي بن أمية المعروف باسم أبي حشيشة كتاب في أخبار الطنبوريين[٦]. وعمل في هذا العصر كثير من المغنين على تحسين آلات الغناء وتغذيته بالألحان الأجنبية، وخاصة أن كثرتهم كانت من الموالي فرساً وغير فرس، بل إن منهم من اخترع بعض الآلات مثل زنام الزامر، فقد اخترع ناياً نسب إليه، فقيل ناي زنامي[٧]. ومما يدل على ما كان للغناء حينئذ من سمو المنزلة أننا نجد طائفة من الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة تشارك في وضع أصواته مثل المنتصر[٨] والمعتز[٩] والمعتمد[١٠] وابن المعتز[١١] وعبيد[١٢] الله بن عبد الله بن طاهر، واشتهر بأنه كان يستطيع أن يجمع ألحاناً كثيرة في صوت واحد، وكانت له كتب في النغم وعلل الأغاني.

وكانت تتقابل في الغناء حينئذ مدرستان: مدرسة محافظة تتمسك بالأصول والأوضاع الموروثة ويمثلها إسحق الموصلي، ومدرسة مجددة لا تزال تضيف إلى التراث الفني في الغناء أصواتاً وأنغاماً وألحاناً ويمثلها إبراهيم بن المهدي، ويحكي أبو الفرج بعض وجوه الخلاف بينه وبين إسحق، فيقول إنهما كانا يختلفا في مدلول بعض المصطلحات، فما كان يسميه إسحق ثقيلاً أولا وخفيفة كان يسميه إبراهيم بن المهدي ثقيلاً ثانياً وخفيفه، وما كان يسميه إسحق ثقيلاً ثانياً وخفيفه كان يسميه إبراهيم بن المهدي ثقيلاً أولاً وخفيفه، ويقول أبو الفرج: "وأما التجزئة والقسمة

---

[١] الأغاني (ساسي) ١٣١/١٦.

[٢] الفهرست ص٢١٤.

[٣] الفهرست ص٢١٤.

[٤] أغاني (دار الكتاب) ٢٦٩/١٥.

[٥] أغاني ٣١١/١٦.

[٦] الفهرست ص٢١٤.

[٧] تاج العروس الزبيدي ٢٣٠/٨.

[٨] أغاني (دار الكتب) ٣٠٩/٩ وأنظر في أصوات أخيه أبي عيسى الأغاني ٢٠١/١٠.

[٩] أغاني ٢٠٥/٩.

[١٠] أغاني ٣٢٣/٩.

[١١] أغاني ٢٧٧/١٠.

[١٢] أغاني ٤٠/٩ يوماً وما بعدها.

فإنهما أفنيا أعمارهما في تنازعهما فيها، حتى كان يمضي لها الزمان الطويل لا تنقطع مناظرتهما ومكاتبتهما في قسمة وتجزئة صوت واحد[١]". وقد توزعا المغنين والمغنيات في القرن الثالث، فكان من ينكر تغيير الغناء القديم يأخذ بمذهب إسحق، ومن رأى التجديد والتغيير في الألحان يأخذ بمذهب ابن المهدي. ونستطيع أن نعين أهم من تعصبوا لهذا أو ذاك، فمن كان يتعصب لإسحاق من المغنين المشهورين في هذا العصر أحمد بن يحيى الملكي، وله ترجمة[٢] في كتاب الأغاني وكان إسحق يقدمه ويؤثره، ولحق عصر المستعين، وكان ابنه محمد يحذق الغناء على شاكلته ولحق عصر المعتمد. وممن كان ينهج منهج إسحق بنان، وكان أخص الناس بالمتوكل والمنتصر، وكان إذا اجتمع و وزنام الزامر على الضرب بالعود والزمر أحسنا وفتنا وأعجبا. ومنهم أيضاً عبد الله[٣] بن أبي العلاء، وقد عمر إلى آخر أيام المعتصد وكانت تقوم دابته وثيابه إذا ركب بألف دينار، وابنه أحمد كان من المغنين النابهين. وممن كان على نهج إسحق أيضاً القاسم بن زرزور وولده وجواري آل هاشم وآل الفضل بن الربيع ومن جرى مجراهم ممن تمسك بالغناء القديم وحمله كما سمعه[٤]. وممكن كان على مثاله أيضاً الزبير بن دحمان وكان متعصباً لإسحق، في حين كان أخوه عبد الله يتعصب لابن المهدي، فكان كل منهما يرفع من صاحبه ويشيد بذكره، يقول أبو الفرج: "فعلا الزبير بتقديم إسحق لهم" لجلالته عند الناس وتمكنه منهم وقبولهم منه[٥]، وكأن أنصار إسحق كانوا أكثر نفراً إذ كان الذوق العام يميل إلى المحافظة أكثر مما يميل إلى التجديد، ولم يكن ذلك شيئاً خاصة بالغناء، بل كان عاماً فيه وفي الشعراء، فقد كان الشعراء والمغنون جميعاً يستمسكون بالتقاليد الموروثة. وممن كان ينزع منزع إبراهيم بن المهدي ورغباته في التجديد بالغناء عمرو بن بأنه، المنسوب إلى أمه، وكان المتوكل أنيساً به، ونال منه جوائز كثيرة "وكان يذهب مذهب إبراهيم بن المهدي في الغناء وتجنيسه ويخالف إسحاق ويتعصب عليه تعصباً شديداً ويواجه بذلك وينصر إبراهيم بن المهدي عليه"[٦]، ويقول أبو الفرج إنه علم الغناء عشرة من الغلمان، وطال عمره حتى ٢٧٨ وكان يشاركه في مذهبه محمد بن الحارث بن بسخنر، وكان من المتعصبين على إسحق، ويقول أبو الفرج: "أخذ الغناء عن إبراهيم بن المهدي ومن بحره استقى"، وكان يغني على المعزفة فنقله ابن المهدي إلى العود

---

[١] أغاني ٩٦/١٠ وما بعدها.

[٢] أغاني ٣١١/١٦.

[٣] أغاني ساسي ١١٤/٢٠.

[٤] أغاني (دار الكتب) ٧٠/١٠.

[٥] أغاني (ساسي) ١٤٤/٢٠.

[٦] أغاني (دار الكتب) ٢٦٩/١٥.

وواظب عليه حتى حذقه[١]، وكان الخلفاء يسكبون عليه أموالهم سكباً، وخرج كثيرات من الجواري اللائي برعن في الغناء.

وعلى نحو ما كان المغنون حزبين: حزباً يتبع إسحق الموصلي وحزباً يتبع إبراهيم بن المهدي كذلك كانت المغنيات، وممن كان يأخذ منهن بمذهب إسحق عريب وجواريها من أمثال تحفة الزمارة وبدعة، وترجم أبو الفرج ترجمة ضافية لها[٢] ذكر في صدرها أنها كانت نهاية في الجمال والظرف وحسن الصوت وجودة الضرب وإتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والألحان ورواية الأشعار، اشتراها الأمين من مولاها المراكبي وكان عمرها سبعة عشر عاماً ونظمها في جواريه الغلاميات، واشتراها المأمون بعده بخمسين ألف درهم، ثم اشتراها المعتصم بمائة ألف وأعتقها فهي مولاته، وظلت تغني طوال حياتها وماتت عن سن عالية سنة ٢٧٧ لعهد المعتمد، وقد أمر علي بن يحيى المنجم أن يجمع غناءها الذي صنعته فأخذ منها دفاترها وصحفها التي كانت سجلت فيها أصواتها، وكتب ذلك كله فكان ألف صوت بارع، واشتهرت جاريتها بدعة[٣] بالغناء وإتقانه على طريقة الموصلي، وعاشت حتى سنة ٣٠٢. وحاول بعض أعيان بغداد شراءها فطلب إلى علي بن يحيى المنجم أن يفاوض عريب في شرائها بمائة ألف دينار، وجعل له عشرين ألفاً، ورفضت بدعة فأعتقتها عريب، ويقال إنها خلفت مالاً كثيراً وجوهراً وضياعاً وعقارات. أما اللائي كن يتعصبن لإبراهيم بن المهدي فعلى رأسهن شارية[٤] جاريته، وكان قد اشتراها بثمانية آلاف درهم، حتى إذا خرجها وذاع صيتها عرض عليه المعتصم فيها سبعين ألف دينار، فأبى أن يبيعها له ضنا بها، واشتراها المعتصم بعد ذلك من تركته بخمسة آلاف وخمسمائة دينار. وكان المعز يأنس لغنائها، وطالب حياتها حتى لحقت المعتمد، وكان بأبي أن يلحن له أشعاره سواها وسوى عريب، وأمر لها ذات مرة وقد غنته صوتاً بألف ثوب من الثياب الأنيقة. ومن جواريها اللائي اشتهرن بالغناء على طريقتها وطريقة ابن المهدي: مهرجان ومطرب وقمرية وشرة وقد اشتراها المعتمد بعشرة آلاف دينار.

وممن كن يحسن الغناء فريدة[٥] زوجة المتوكل وجاريته محبوبة[٦] وقلم[١] الصالحية وشاجي[٢] ارية عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وقد نسب إليها كل ما صنعه من الغناء والأصوات. وكانت

---

[١] أغاني (ساسي) ٨٢/٢٠.

[٢] أغاني ١٧٥/١٨ وما بعدها.

[٣] أغاني ١٩ / ١٢٥ وعريب ٣٨ والطبري ١٥٠/١٠ والهمداني ص١٥.

[٤] أغاني (دار الكتب) ٣/١٦ وما بعدها.

[٥] أغاني ١١٤/٤.

[٦] أغاني (ساسي) ١٣٢/١٩.

هناك جماعة كبيرة اشتهرت بالغناء على الطنبور في مقدمتها أو حشيشة[٣] الطنبوري الذي عاش إلى عصر المعتمد، وسليمان[٤] بن القصار الطنبوري، وكان المعتز أنيساً به، ويقال إنه غناه يوماً صوتاً فأعطاه مائة دينار مكية ومائتين مما ضرب لخزانته، وجحظة البرمكي وله ترجمة طويلة في معجم الأدباء، وعمر[٥] الميداني ولم يكن في الطنبوريين أصح غناء وأكثر تصرفاً منه، وعبيدة[٦] الطنبورية، وكانت تتقن الضرب على الطنبور إتقاناً بعيداً. وكثيراً ما كان يأخذ الغناء شكل جوقة، وكانت آلات الغناء عادة أربعاً هي العود والجنك والقانون والمزمار، وقد يوضع مكان القانون الطنبور[٧]. وكثيراً أيضاً ما كان يقترن الغناء بالرقص، وفي مروج الذهب للمسعودي فصل[٨] طريف يوضح صلته بالغناء والموسيقى وما كانت ترتفع به الحناجر من أشعار، وفيه تسمى أنواع الرقص وفنونه بأسماء وأوزان الشعر من مثل الخفيف والرمل والهزج، بالمثل كانوا يقيسون الغناء، مما يدل أقوى الدلالة على الصلة الوثيقة بين الفنون الأربعة: الغناء والموسيقى والرقص والشعر.

وكان للجواري في هذا الجو المشبع بالموسيقى والغناء أثر كبير في شيوع الظرف والرقة واللطف، إذ دفعوا لشباب والشيوخ إلى تمثل كثير من العواطف والمشاعر التي تملأ قلوبهم ليناً وبراً وعطفاً ووداً، وقد خلبوا ألبابهم بحديثهن الساحر الذي يصب في القلوب تارة رحيقاً وتارة رحيقاً، حديث العشق وما يشيع فيه من العواطف والمواجد ونور الأمل وظلام اليأس وما قد يتحول إليه من حب مادي كثير الشباك: شباك التضرع والأمل والطلب، وحب أفلاطوني نقي كثير الحجب: حجب الطهر واليأس والبراءة، مما جعل الشعر يكتظ بمعاني الرقة واللطف المفرطين كما يكتظ بالظرف حتى ليصبح للظرفاء تقاليد خاصة في الزي والنظر وتناول الطعام والشراب، وقد أفرد لها الوشاء فصلاً خاصاً في كتابه "الموشي" يدل على رقة الحس أوسع دلالة. ونستطيع أن ندخل في فنون الظرف التي أشاعها الجواري حينئذ إعجابهن بالأزهار وتعلقهن بها وشغف كثيرات منهن بكل زهر وريحان، حتى لتلحق بالقصور حدائق كثيرة ويقام كثير من

---

[١] أغاني (دار الكتب) ٣٤٧/١٣.

[٢] أغاني (ساسي) ٤٢/٨ ونشوار المحاضرة ٦٣/١ والديارات ص ١١١ وما بعدها.

[٣] تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٥٧/٣ والفهرست ص ٢١٤.

[٤] أغاني (دار الكتب) ١١٢/١٤.

[٥] أغاني (ساسي) ٦٦/٢٠.

[٦] أغاني ١٣٤/١٩.

[٧] التنوخي على المستطرف ١٤٤/٢.

[٨] مروج الذهب ١٣٧/٤.

البساتين. وألهمت الأزهار الشعراء بكثير من الأشعار، حتى ليصبح وصف الطبيعة باباً مهماً من أبواب الشعر، وليس ذلك فحسب، فقد أحس الشعراء في الأزهار معاني السلوى في الحب والوصل ودنوه واتصاله وانقطاعه، إلى غير ذلك من معان لا تحصى، كأن يحس شاعر في معنى الورد الخجل لاحمراره ويحس آخر انقطاع الوصل لسرعة ذبوله، أو يحس شخص في البنفسج عودة الوصل ورجوعه. وكانوا يتهادون بالأزهار والرياحين دالين بها على أمثال تلك المعاني، كما كان يحيي بها بعضهم بعضاً، وكثرت التحية عندهم بالتفاح، وكانت الجارية تترك على التفاحة أثر أخذها بفهمها، وقد تشققها بالمسك أو بالغالية أو بغيرهما من أنواع الطبيب، وقد تكتب عليها بيتاً أو بيتين تدل بهما على اللوعة، ويقول ابن المعتز[١]:

وآثار وصل في هواك حفظتها　　تحيات ريحان وعضات تفاح

وكان يكتبن أبيات الحب الرقيقة على الثياب والأكمام والقلانس والعصابات الطرر والذوائب والمناديل والبسط والوسائد والأسرة[٢]، ويروي أن عريب كان تلبس قميصاً موشحاً بالذهب، كتب في وشاحه:

وإني لأهواه مسيئاً ومحسناً　　وأقضي على قلبي له بالذي يقضي

فحتى متى روح الرضا لا ينالني　　وحتى متى أيام سخطك لا تمضي

وكن يتنافسن في التهادي بالتحف الجميلة وتبعهم الشباب والرجال. وليس ذلك فيحسب، فقد كن يتثقفن بثقافات العصر، وعملن على شيوع الثقافة، إذ كان منهن كثيرات يروين الأشعار والأخبار، وينظمن الشعر نظماً بديعاً.

---

[١] الديوان ص١٣٩.

[٢] أنظر الموشي للوشاء والعقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٤٢٥/٦ وما بعدها.

٤

المجون والشعوبية والزندقة:

رأينا في كتابنا العصر العباسي الأول كيف كانت موجة المجون حادة، وقد انتقلت إلى هذا العصر بحدتها، إن لم تكن زادت حدة فوق حدة، إذ ظل الناس يمنعون في شرب الخمر واحتساء كئوسها، مدمنين عليها لا يرعوون ولا يزدجرون. ومعروف أن القرآن الكريم حرمها، ولذلك أجمع الفقهاء على تحريمها، لمجيء ذلك بنص القرآن، وما كان محرماً بنصه لا يحل منه قليل ولا كثير. أما النبيذ فمسكره محرم أيضاً بالقياس، غير أن اجتهاد بعض فقهاء العراق الأحناف أداهم إلى تحليل بعض الأنبذة غير المسكرة كنبيذ التمر والعسل والتين والبر وكالزبيب المطبوخ أدنى طبخ. فشرب الناس هذه الأنبذة وشربها الخلفاء، وتجاوزوا ما حلله الأحناف إلى المسكر المحرم من الأنبذة وغيرها، وفي ذلك يقول ابن الرومي: [١]

أباح العراقي النبيذ وشربه ... وقال حرامان: المدامة والسكر

وقال الحجازي: الشرابان واحد ... فحل لنا من بين قوليهما الخمر

سآخذ من قوليهما طرفيهما ... وأشربها لا فارق الوازر الوزر

وابن الرومي يريد بالحجازي الشافعي وبالعراقي أبا حنيفة، وقد استحدثت لنفسه مذهباً ثالثاً لم يحل فيه الأنبذة المسكرة فحسب بل أحل أيضاً الخمر، وساد هذا المذهب لا بين أضرابه من الشعراء فحسب بل بين كثير من الناس، وإن كان يجب أن نحتاط بالقياس إلى الخلفاء، وأن نظن أنهم إنما تورطوا في الأنبذة فلم يقفوا عند أنواعها المحللة، بل شربوا أنواعها المسكرة. وكان المتوكل يعقد في قصوره مجالس كثيرة للمنادمة والشراب، وكان يحب الشرب ومن حوله الورود والرياحين[٢] وكان المعتز ابنه يزور الأديرة للشراب[٣]، وكان يشرب في قصوره بين ندمائه والمغنون يغنون بين يديه، كما كان يشرب في البساتين[٤]. وفرغ المعتمد- كما مر بنا في غير هذا الموضع- للهو والشراب، ويقول المسعودي:"كان مشغوفاً بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهي[٥]، وديوان ابن المعتز مليء بالخمر ودنانها وكئوسها وغبوقها

---

[١] ديوان ابن الرومي (اختيار وتصنيف كامل كيلاني) ص٧٨. المنتصر أغاني (ساسي) ١٣٠/١٧.

[٢] الديارات ص١٦٠ وانظر في صبوح.

[٣] الديارات ص ١٦٤ وما بعدها.

[٤] الديارات ص ١٦٦ وما بعدها.

[٥] مروج الذهب ١٣١/١٤.

وصبوحها. وكان القاهر مدمناً شرب الخمر[١] كما كان مولعاً بالغناء والسماع وجعله ذلك يأمر بأن تباع الجواري المغنيات على أنهن لا يعرفن الغناء حتى يحصل منهن على من يريد بأرخص الأثمان، وبالمثل حرم الخمر على الناس وكأنه يريد أن يعبها وحده[٢]، وكان الراضي عاهد ربه ألا يشرب وظل على ذلك سنتين من خلافته مع إذنه لجلسائه وندمائه بالشرب، ثم وجدوا له رخصة من يمينه فكفر عنها وعاد على الشراب، وآخر الخلفاء في العصر المستكفي وكان قد ترك الشراب، فلما ولي الخلافة دعا به تواً وعاد إلى شربه[٣].

وعلى هذا النحو كانت قصور الخلافة في عصور كثير من الخلفاء كأنها مقاصف للشراب والسماع والغناء، وبالمثل كانت قصور الأمراء والوزراء وكبار أصحاب المناسب في الدولة وعليه القوم، وتورط فيها بعض القضاة عن طريق النبيذ المحلل، كما تورط كثير من علماء اللغة وغيرهم أمثال ابن دريد، كان يعكف عليها عكوفاً شديداً، ويقول أبو حفص بن شاهين: "كنا ندخل عليه فنستحي مما نرى من العيدان المعلقة والشراب وقد جاوز التسعين"[٤]. وأوغل الشعراء فيها إيغالاً. ومن يتصفح كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني يحس أن بعض الناس أدمنوها إدماناً شديداً. وكانوا يعقدون لها المجالس في المساء والليل والصباح، وآثروا ألا يقل عدد الندماء عن ثلاثة، وكان يدور عليهم بها السقاة والساقيات من الغامان والجواري كانوا يزينون مجالس الشراب بالورود والرياحين كما كانوا يزينون رءوسهم أحياناً بأكاليل الزهر.

وكان كرخ بغداد يكتظ بالمقينين وكانوا منبثين أيضاً في سامراء، وتحولوا بدورهم إلى ما يشبه حانات كبيرة، ففيها الخمر، وفيها القيان المغنيات، وفيها الجواري الظريفات الأديبات، وكان الشعراء يختلفون إلى هذه الدور أو قل إلى هذه الحانات ومثلهم الناس م نحولهم فيعبون من كئوسها ويتمتعون بالسماع ومغازلة الجواري والقيان. وكانت البساتين حول سامراء وبغداد تمتلئ بحانات الخمر والسماع، وكان الشعراء والناس يختلفون إليها، ويد يختلون بأنفسهم إلى زاوية في بستان ويتخذون منها لأنفسهم حانة، يشربون فيها على أزهار الرياض وأبصارهم تتملى بجمال الجواري وآذانهم تتمتع بالسماع، وكثيراً ما يصور الشعراء هذا المتاع المضاعف بجمال الطبيعة وجمال المرأة ونشوة الخمر من مثل قوله البحتري[٥]:

اشرب على زهر الرياض يشوب زهر الخدود وزهرة الصهباء

---

[١] النجوم الزاهرة ٣/٢٤٥.

[٢] ابن الأثير (طرعة أوروبا) ٨/٢٠٤.

[٣] مروج الذهب ٤/٢٦٧.

[٤] النجوم الزاهرة ٣/٢٤١.

[٥] الديوان ١/٦.

من قهوة تنسى الهموم وتبعث الـ شوق الذي قد ضل في الأحشاء

وكان من يعملون بالحانات من الأجانب سواء الرجاء أو النساء، ويقول الجاحظ: "من تمام آلة الخمار أن يكون ذمياً وأن يكون اسمه آذين أو مازيار أو أزدانقاذار أو ميشا أو شلوماً ويكون أرق الثياب مختوم العنق"[١] وتختلط في النص أسماء فارسية ونصرانية ويهودية. أما الجواري فكن من القيان الأجنبيات غالباً،وكانت تعج بهم حانات البساتين وحانات الكرخ ودور المقينين، والشباب الشعراء يختلفون إليهن، وكن من أجناس مختلفة، وقلما كان يشعرون بشيء من الكرامة أو يستشعرن شيئاً من التحفظ والاحتشام بل قد كان يتفنن في الحيل التي يجذبن بها الرجال، وكن يستكثرن من الخلان بطرق غير مستقيمة، فدفعن إلى كثير من الفجر والمجون، وكل شيء من حولهن يغريهن على هذا السلوك الآثم، وصور ذلك الجاحظ، فقال: "كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة، وإنما تكتسب الأهواء تتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ، وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها فيما صد عن ذكر الله من لهو الحديث... وبين الخلعاء والمجان ومن لا يسمع منه كلمة جد، ولا يرجع منه على ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة. وتروي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت (أغنية) فصاعداً يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، وعدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ولا ترهيب من عقاب ولا تغريب في ثواب، وإنما بني كلها على ذكر... القيادة والعشق والصبوة والشوق والغلمة، ثم لا تنفك من الدراسة لنصعتها منكبة عليها تأخذها من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش وإنشادهم مراودة"[٢]. وكان الزوار ينالون منهن ما يريدون ما داموا يقدمون للمقين هداياهم النفيسة، وكن بدورهن يتخذن من بينهم المعشوقين، فما يزلن يغمزن هذا بعين وذاك بعين، وما يزلن يقمن من حولهن الشباك، وكثير من الشعراء والشباب يتعثرون فيها، وكثيرون كانوا يصلون إلى قلوبهن، وهن لا يحتشمن ولا يتحرجن، ودائماً يقمن حفلات الغناء والموسيقى والرقص.

واستحالت الأدبرة في هذا الجو الماجن إلى دور للعبث واللهو، وهيأ لها ذلك أنها كانت تقدم لروادها الخمور المعتقة. وكانت متناثرة في ضواحي بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق، فحولها والشعراء والناس إلى مجالس للخمر والمجون، وأكثروا من التغني بها ووصف متاعهم بخمورها ونشوتها وسقاتها من الرهبان والراهبات، حتى لتؤلف في ذلك كتب مستقلة مثل كتاب

---

[١] البيان والتبين (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٩٢/١

[٢] أنظر ثلاث رسائل للجاحظ نشل فنكل ص ٧١ وما بعدها.

"الديارات" للشابشتي وهو يكتظ بأشعار ابن المعتز وغيره، وله يذكر لياليه بالمطيرة إحدى منتزهات سامراء وبالكرخ وحاناته وبدير السوسي وراهباته[١]:

يا ليالي بالمطيرة والكر ... خ ودير السوسي بالله عودي

كنت عندي أنموذجات من الجنـ ... ـة لكنها بغير خلود

وكانت هناك أيام سنوية يخرج فيها أهل سامراء وبغداد وغيرهما من مدن العراق للهو والقصف والمجون وهي أيام الأعياد: أعياد الإسلام وأعياد الفرس وأعياد النصارى، وكانت تشبه كرنفالات ضخمة يلهو الناس فيها لهواً مباحاً وغير مباح ويتفرجون على القصاص والحكائين وأصحاب المساخر الهزليين، أما أعياد الإسلام فهي أعياد راس السنة الهجرية وعيد الفطر وعيد الأضحى. وفي ديواني البحتري وابن المعتز إشارات لها مختلفة[٢]، وأما أعياد الفرس فمن أهمها عيد النيروز في أول الربيع، وهو أول السنة الفارسية، وينوه الشعراء بذكره كثيراً كقول البحتري يهنئ المعتمد به وبلحظات سروره[٣]:

لا تخل من عيشٍ يكر سروره ... أبداً ونيروزٍ عليك معادِ

وكانوا يكثرون من التهادي فيه، ويروي أن المتوكل كان يهدي فيه هدايا متنوعة فيها تماثيل من عنبر وورود حمراء[٤]. وكانوا يخرجون فيه إلى المنتزهات والبساتين يقصفون ويمرحون ويلهون ملاهي مختلفة. ومن أعياد الفرس عيد المهرجان في أول الشتاء، وفيه يقول البحتري[٥]:

وكأن الأيام أوثر بالحسـ ... ـن عليها ذو المهرجان الكبير

ولابن الرومي قصيدة طويلة يهنئ فيها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر به، وقد حشد فيها كثير من فنون اللهو فيه[٦]، وكان للفرس عيد يسمى عيد السذق كانوا يوقدون فيه النيران على الجبال والتلال، ويظلون يجمعون لها الأحطاب أياماً، ومن اشهر ما كان في هذا العيد احتفال مرداويج الديلمي أمير الجبل في غربي إيران به، ويقال كان في السماط الذي صنعه فيه ألف راس من البقر[٧].

---

[١] الديارات ص١٤٩.

[٢] انظر ديوان البحتري ١٠٧١/٢ ، ١٠٩٦ وديوان ابن المعتز ص ١٨١ ، ٢٤٧.

[٣] ديوان البحتري ٧٣٤/٢.

[٤] الديارات ص٥٧.

[٥] الديوان ٨٨٧/٢.

[٦] ديوان ابن الرومي (نشر كيلاني) ص٨٢.

[٧] مسكويه ٤٧٩/٥ وأبو الفدا في عام ٣٢٣ وابن الأثير ٢٢٢/٨.

أما أعياد النصارى فكان تقريباً لكل دير عيد يخرج فيه الناس إليه للهو والمجون والهزل، وكانت لهم أعياد عامة، منها عيد الميلاد وكانوا يكثرون فيه من إيقاد الشموع والنيران[١]، ومنها عيد الشعانين أو عيد الزيتونة وهو يقع في يوم الأحد الذي يسبق عيد الفصح من كل سنة، وكان النصارى يتقلدون فيه الصلبان ويتوشحون بالمناديل المنقوشة ويحملن بأيديهم الخوص والزيتون. وكانت الدير الأعلى في الموصل يحتفل بهذا العقد احتفالاً كبيراً. ومن أعيادهم عيد الفصح، وعندهم أن عيسى قام فيه بعد الصلب بثلاثة أيام، وكان يحتفل به دير سمالو شرق بغداد، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا قصده للقصف والمجون، وفيه يقول محمد بن عبد الملك الهاشمي[٢]:

ولرب يوم في سمالو تم لي ... فيه السرور وغيبت أحزانه

فتلاعبت بعقولنا نشواته ... وتوقدت بخدودنا نيرانه

حتى حسبت لنا البساط سفينة ... والدير ترقص حولنا حيطانه

وكان يقام في أكتوبر عيد للقديسة أشموني في قطربل، وهي قرية في شمال بغداد كانت أشبه بحانة للخمارين، وكان الناس يذهبون من بغداد وسامراء إلى هذا العيد عن طريق الدواب أرضاً والسفن في دجلة بحراً، متنافسين فيما يظهرونه هناك من زيهم وزينتهم ومباهين بما يعدونه لقصفهم، وكانوا يضربون في شط القرية وديرها وحاناتها وأكنافها الخيم والفساطيط وتعزف عليهم القيان وهم يحتسون كئوس الخمر، وبالمثل كانوا يصنعون في عيد دير الزندورد بالجانب الشرقي لبغداد، وفيه يقول جحظة[٣]:

دير تدور به الأقداح مترعة ... من كف ساق مريض الطرف وسنان

والعود يتبعه ناي يوافقه ... والشدو يحكمه غصن من ألبان

ولا شك في أن كل ما قدمنا أعد لانتشار المجون والخلافة في سامراء وبغداد، إذ كانت الخمر في كل مكان ومعها القيان والجواري المبتذلان، فكان طبيعياً أن يعم كثير من الشعر الصريح، بل المفرط في إباحيته وفي التعبير عن الغرائز الجسدية. ولم يكن كل ما في المدينتين العرقيتين الكبيرتين المجون وآثامه، بل كان هناك تقي كثير ونسك وعبادة، وهو ما حماهما من السقوط. على أن هؤلاء المجان والخلفاء تورطوا في آفة مزرية، هي آفة الشغف بالغلمان المرد، وهي آفة

---

[١] ابن الأثير ٢٢٢/٨ وأبو الفدا في ٣٢٣.

[٢] الديارات ص ١٤.

[٣] الديارات ص ٣٣٨.

ورثوها عن العصر العباسي الأول. على أن من أصحاب هذا الغزل المزري من ارتفعوا به عن أدران المادة، وجعلوه غزلاً أفلاطونياً نقياً، وسنفصل القول في ذلك في أثناء حديثنا عن شعراء الغزل، على نحو ما هو معروف عن الفقيه محمد بن داود الأصفهاني وتعلقه بمحمد بن جامع الصيدلاني. ولا بد أن نذكر أن كثيرين من الفقهاء وعلماء الدين والوعاظ كانوا لا يزالون يشددون النكير على المجون وما اتصل به من خمور ومن سماع، وبتأثيرهم حاول- كما قدمنا- المهتدى أن يحمل الناس على الجادة، فحرم الشراب ونهي عن القيان والسماع إليهن، غير أن العامة والخاصة استطالوا حكمة واحتال عليه الأتراك حتى قتلوه بعد سنة واحدة من خلافته، وصنع صنيعه بأخرة من العصر المتقي، ولكنه لقى سريعاً المصير نفسه. ويذكر ابن الأثير أنه في عام ٣٢٣ للهجرة دبر الحنابلة ببغداد حمله شعواء على لمجون وفتشوا دور القواد والعامة، وكانوا كلما وجدوا نبيذاً أراقوه أو آلة للغناء حطموها أو مغن أو ضربوها، وحرموا على الرجال رفقة الصبيان والغلمان[1].

وظلت مستعرة في هذا العصر نيران الشعوبية على نحو ما كانت مستعرة في العصر العباسي الأولى، إذا مضى كثيرون يشيدون بفضائل الشعوب القديمة وحضارتها ومدنيتها، وفي مقدمتها الفرس بسياستهم وآدابهم والروم بعلومهم وفلسفاتهم والهند بسحرها ومعارفها الرياضية وغير الرياضية. وانضم إلى هذه الدعوة كثيرون من أبناء الشعوب الأخرى، من النبط والسريان وغيرهما، منوهين جميعاً بما كان بديارهم من علوم وآداب وفنون وعمارة، وكأنما ذهبت أدراج الرياح مناداة الإسلام بهدم الفوارق العصبية بين القبائل والفوارق والجنسية بين الشعوب، وكأنما كان هؤلاء الشعوبيون يبتغون أن يحدثوا صداعاً لا يلتم ولا يمكن رأبه بين أفراد الأمة، وقد لجوا في تصوير ما كان عليه الجاهليون- وعرب البوادي لعصرهم- من العيش الخشن ومن الغلظة والأطعمة اليابسة الجافة، وكيف أن العرب كانوا- ولا يزال كثيرون منهم- بدواً رعاة أغنام وإبل، وأين هم من ملك الأكاسرة والقياصرة؟ وأين هم من الحضارة الفارسية الرومية ؟ وأين هم من علوم الروس والفرس ؟ وكان كثيرون من العلماء قد كتب في إفاضة عن مثالب القبائل في القديم، فاستغل الشعوبيون ذلك واتخذوا منه أسلحة لدعوتهم، وحتى فضائل العرب من مثل الكرم والشجاعة حاولوا طمسها، ناقضين لها نقضاً.

وتصدي الجاحظ وابن قتيبة لهذه النزعة الآثمة ورداً عليها رداً عنيفاً، أمام الجاحظ فعقد في كتابه "البيان والتبيين" باباً طويلاً سماه "كتاب العصا" صور فيه طعن الشعوبية على العرب في خطابتهم، إذ كانوا يشيرون فيها بالعصي وبالمخاصر، كما كانوا يتكئون على القسى، مما يصرف- في رأي الشعوبيين- الخاطر ويشغل الذهن في أثناء الخطابة. وزعموا أن الخطابة

---

[1] ابن الاثير ٨/٢٢٩ وما بعدها.

ليست ميزة ينفرد بها العرب دون سواهم، هذه هي في جميع الأمم حتى الزنج. وزعموا- فيما زعموا- أن الفرس أخطب من العرب وأن لهم في صناعة البلاغة كتباً متوارثة. وطعنوا على الحرب أيضاً في أسلحتهم الحربية وآلات الحرب الضخمة من مثل المجانيق والعرادات. وكل ذلك نازعهم فيه الجاحظ في عنف شديد، ولكي يبلغ كل ما كان يريد من إفحامهم ومقاومتهم جعل كتابة "البيان والتبيين" رداً مفحماً عليهم، إذ خصصه لعرض الثقافة العربية لخالصة في صورها المختلفة من الخطابة والشعر والأمثال، كي يروا رؤية العين ما في هذه الثقافة من قيم بلاغية وجمالية، فينتهوا عن مزاعمهم ويثوبوا إلى رشدهم. وأما ابن قتيبة فألف في الرد عليهم مبحثاً سماه[١] "كتاب العرب أو الرد على الشعوبية" وهو في مطالعه يذكر أن من أشد الشعوبيين عداوة للعرب قوماً من كتاب الدواوين امتعضوا لآداب أقوامهم، حتى اعتزى أو انتسب نفر منهم إلى أشراف العجم وأساورتهم، داخلين بذلك في باب فسيح من الدعوى والنسب المتهم لا حجاب عليه ولا مدافع عنه، ويقول إنهم كانوا يزرون على الحكم والأمثال العربية ويتبجحون بما يرون عن الفرس واليونان من آداب وعلوم. ولم يكتف بعنفه عليهم في هذا المبحث الطريف، فقد عنف بهم في مقدمة كتابه "أدب الكاتب" مصوراً قصورهم عن النهوض بوظيفتهم الأدبية في الدواوين لنقص ثقافتهم العربية، وحاول محاولة طريفة في كتابه "عيون الأخبار" أن يجمع بين تلك الثقافة والثقافات الأجنبية ليبين أنها كلها ضرورية ولا تعارض بينها بوجه من الوجوه مما قضى على الشعوبية قضاء مبرماً على نحو ما سنصور ذلك في الفصول التالية.

ومن أهم الكتاب الذين كانوا يستشعرون هذه النزعة الحمقاء سعيد بن حميد بن البختكان، وكان من أبناء دهاقين الفرس وزعم أنه من سلالة ملوكهم، وله في الشعوبية والتعصب لقومه كتب مختلفة، منها كتاب فضل العجم على العرب وافتخارها[٢]. ويبدو أن الجاحظ وابن قتيبة جميعاً استطاعا أن يقضيا قضاء مبرماً على الشعوبية فقلما نسمع بعدهما بشعر شعوبي أو بمن ألف في الشعوبية وانتصر لها. وقد أشرنا في كتاب العصر العباسي الأول إلى أن بعض الباحثين أدخل في هؤلاء الشعوبيين من يقولون بالتسوية بين العرب وغيرهم، ويجب أن ينحوا عن هذه الجماعة الضالة، لأنهم كانوا في الواقع ينادون بنظرية الإسلام وما دعا إليه من المساواة بين جميع أفراد في الأمة عرباً وغير عرب، مساواة تشمل جميع الحقوق والواجبات بحيث لا يفضل مسلم صاحبه إلا بالتقوى والعمل الصالح كما جاء في الذكر الحكيم: (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير). وأيضاً

---

[١] أنظر هذا الكتاب في رسائل البلغاء لمحمد كرد على (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص٣٤٤ وما بعدها.

[٢] الفهرست لابن النديم ص١٨٥.

كما جاء في خطبة حجة الوداع: "أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى"، وبذلك يتضح أن التسوية بين الشعوب هي نظرية الإسلام، فلا عربي يفضل أعجمياً ولا أعجمي يفضل عربياً من حيث النسب والقومية، إذ ليست العروبة ولا العجمة في الإسلام ميزة تعلى من شأن صاحبها، فالناس جميعاً سواسية. وإذن فمن الخطأ أن نحمل القائلين بالتسوية على الشعوبيين أو على القول بالشعوبية، إنما الشعوبيون هم الذين يعلون الأعاجم على العرب وينادون بعدم التسوية حانقين حنقاً شديداً على كل ما هو عربي، بل إن الضغينة لتأكل قلوبهم أكلاً فإذا هم يودون لو ثأروا لآبائهم من العرب حين أزالوا ملكهم ونقضوا عروشهم فردوهم إلى ديارهم على أعقابهم مدحورين. وممن كان يذهب هذا المذهب في الحماقة والجهالة والعداوة للعرب المتوكل الشاعر المنسوب إلى المتوكل لأنه كان من ندمائه، إذ يقول في شعوبية حاقدة ذميمة[1]:

أنا ابن المكارم من نسل جم ... وحائز إرث ملوك العجم

وطالب أوتارهم جهرة ... فمن نام عن حقهم لم أنم

فقل لبني هاشم أجمعين ... هلموا إلى الخلع قبل الندم

فإني سأعلو سرير الملوك ... بحد الحسام وحرف القلم

وواضع أن قلب المتوكلي يضطرم حقداً وضغينة على العرب، حتى ليظن نفسه أنه من أبناء جم أو جمشيد الملك الفارسي القديم وأنه قد وكل إليه أخذ الثأر أو الآثار من هؤلاء الذين قوضوا ملك آبائه، وإنه ليتجه إلى حكام الأمة من بني هاشم مهدداً لهم متوعداً ومنذراً أن يبادروا إلى خلع أنفسهم والعودة إلى موطنهم الأصلي في الحجاز، ليعيشوا كما كان يعيش آباؤهم معيشة غليظة خشنة يأكلون فيها اليرابيع والضباب، ويرعون الأغنام، على نحو ما يرعى ويأكل نازلة القفر والفلوات، وكأنه نسي أنه بني هاشم من قريش سكان مكة في القديم وأنهم لم يكونوا رعاة ولا أهل جفاء وخيام، ولكنها الشعوبية العمياء الرعناء.

ولعل أسوأ ما أدت إليه هذه الشعوبية الحمقاء الزندقة والزنادقة الذين كانوا يبغضون العرب وكل ما اتصل بهم من إسلام وغير إسلام، ويوضح ذلك الجاحظ قائلاً: "إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأى الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدال المؤدي إلى الضلال، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله،وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذ كانت العرب هي

---

[1] ضحى الإسلام (الطبعة السابعة) ٦٥/١.

التي جاءت به، وهي السلف والقدوة"[١]. ومر بنا في العصر العباسي الأول أن الزندقة إنما كان يوصم بها أولاً من يتابعون ماني في عقيدة النور والظلمة وما اتصل بها من مبادئ، بالضبط كما كانت تطلق عند الفرس. والزنادقة المعتنقون لهذه الأفكار هم الذين كانوا يحاكمون زمن المهدي وابنه الرشيد، ثم اتسع مدلولها فشملت كل من اعتنق نحلة فارسية من نحل المجوس كنحلة المزدكية وما دعت إليه من التحلل الخلقي والإباحية المسرفة، واتسعت أوسع من ذلك فشملت كل إلحاد بالدين الحنيف أو بالديانات مطلقاً وكل مجاهرة بالعصيان والإثم والفسق. ومر بنا أيضاً في العصر العباسي الأول كيف أن المتكلمين- وفي مقدمتهم المعتزلة- تجردوا لجدالهم ونقض أقوالهم وآرائهم الخبيثة، وعقدوا لذلك مناظرات كانوا يفحمونهم فيها إفحاماً شديداً، على نحو ما صور ذلك الجاحظ عن النظام في كتابه الحيوان، وألفوا أيضاً الكتب والرسائل الطوال.

ولم تهدأ حركة الإلحاد والزندقة في هذا العصر التالي، بل لقد اشتد أوارها، إذ تحول كثيرون منهم إلى التشكيك في النبوات عامة، وكان من أشدهم نفر بدءوا حياتهم في صفوف المعتزلة، وما زالوا يبطنون الإلحاد حتى افتضح أمرهم وانكشف سرهم، وفي طليعتهم أبو عيسى الوراق المتوفى سنة ٢٤٧ للهجرة[٢] وكان في أول أمره معتزلياً، وأحس المعتزلة فيها إلحاده فطردوه عنهم، فتحول شيعياً رافضياً، وينعته الخياط بأنه كان مانوياً يؤمن بأزلية النور والظلمة وقدم العالم[٣]، ويبدو أنه أنكر النبوات وأن له في ذلك بعض الرسائل[٤]. وقد أثر تأثيراً واسعاً في تلميذه أبي الحسين أحمد بن إسحق الراوندي[٥] المولود فيما بين سنة ٢٠٥ و ٢١٥ وكان يعتنق في أول الأمر الاعتزال وصنف عدداً من الكتب في مناصرته ونشره بين الناس، ثم تحول عنه إلى التشيع على مذهب الرافضة مثل أستاذة أبى عيسى وصار أعنف خصوم المعتزلة في القرن الثالث الهجري، بل لقد تمادى في ذلك حتى كفر بالدين وجميع الديانات وألف في ذلك كتباً مختلفة يسميها صاحب الفهرست باسم الكفريات. ولما ارتفع اسمه إلى مسامع الحكام خشى مغبة

---

[١] الحيوان ٧/٢٢٠.

[٢] مروج الذهب ٤/٢٣.

[٣] كتاب الانتصار (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص١٥٢.

[٤] أنظر مجموعة من النصوص غير المنشورة متعلقة بتاريخ التصوف في الإسلام لماسينيون (طبع باريس ١٩٢٩) ص٨٢.

[٥] أنظر في ابن الراوندي وأستاذه أبي عيسى الوراق كتاب من تاريخ الإلحاد في الإسلام لعبد الرحمن بدوي (نشر مكتبة النهضة المصرية) وانظر في ترجمة ابن الباوندي ووفاته مروج الذهب ٤/٢٣ وابن خلكان ومعاهد التنصيص (طبقة بولاق) ١/٧٦ ومرآة الجنان لليافعي ٢/١٤٤ ، ٢٣٧ والنجوم الزاهر ٣/١٧٥ وشذرات الذهب لابن العماد ٢/٢٣٥ ومقدمة نيبرج لكتاب الانتصار وتاريخ أبي الفدا في عام ٢٩٣.

ذلك وأن يرمي به في غياهب السجون فاختبأ في منزل أبى عيسى بن لاوى اليهودي الأهوازي، وله صنف بعض كفرياته، وما زال مختبئاً بمنزله حتى توفى على ما يقول المسعودى وابن خلكان حوالي سنة ٢٥٠ للهجرة وقال ابن الجوزي وابن تغري بردي إنه توفى سنة ٢٩٨ ويرجع التاريخ الثاني ما يذكره ابن الأنباري في نزهة الألباء بترجمة المبرد عن كتابه المقتضب وأنه لم يكتب له الرواج، لأن ابن الرواندي الملحد رواه.

وسقطت كتب ابن الراوندي في العصور التالية من أيدي الزمن، فلم يصلنا منها شيء، ولكن وصلتنا شذور ومقتطفات في كتب بعض من ردوا عليه أو من ترجموا له، من ذلك كتاب المجالس المؤيدية لهبة الله الشيرازي داعى دعاة الفاطميين لعصر المستنصر إذ جلب اقتباسات[١] من كتابه "الزمردة في دفع النبوات" وفيها نراه يرد إنكار النبوات إلى البراهمة الهنود تضليلاً حتى يبعد التهمة عن نفسه، وكأنه إنما يتكلم بلسانهم، وهو يستهل كلامه بأن الله أنعم على الإنسان بالعقل ليميز الحسن من القبيح والخير من الشر، وإذن فلا داعى للرسل، لأنهم إما أن يؤكدوا هذا التمييز العقلي الذي يغني عنهم فيه العقل، وإما أن يبطلوه أو ينقضوه وحينئذ تكون نبوتهم عبثاً ولا حاجة للإنسان بها، ويقول إن الرسول عليه السلام أتى بما ينافر العقول من مثل الصلاة وشعائر الحج ومناسكه، وينفي المعجزات النبوية، ويزعم أن فصاحة القرآن ليست معجزة وخاصة بالقياس إلى العجم الذين لا يدركون الفصاحة العربية. ويردد نفي المعجزات النبوية وأن الملائكة نصروا رسول الله في غزوة بدر وأنه أسرى به إلى بيت المقدس، ويمضي في لغو من هذا النوع، ونرى ابن الجوزي ينقل في كتابه المنتظم شذرات[٢] أخرى من مصنفه الزمردة، ويبدو أن ابن تغري بردي نقلها عنه، من ذلك أنه كان يقول: "إنا نجد في كلام أكثم بن صيفي الحكيم الجاهلي أحسن من (إنا أعطيناك الكوثر) و (قل أعوذ برب الفلق) وإن الأنبياء وقعوا (اهتدوا إلى) بطلسمات تجذب كما أن المغناطيس يجذب الحديد أما قوله صلى الله عليه وسلم لعمار: تقتلك الفئة الباغية (كان مع على بن أبي طالب في صفين وقتله جيش معاوية): فإن المنجم- في رأيه- يقول مثل هذا إذا عرف المولد وأخذ الطالع. ويقول ابن الجوزي: "كان ابن الرواندي وأبو عيسى محمد بن هرون الوراق الملحد يترامیان بكتاب "الزمرد" ويدعى كل واحد منهما على الآخر أنه تصنيفه، وكانا يتوافقان على الطعن في القرآن[٣]". أما كتابه الكفري الثاني الذي خص به الرد على القرآن فهو كتاب "الدامغ"، ويقال إنه صنف هذا الكتاب إرضاء لليهودي الذي كان يؤويه، وهو فيه ينكر إعجاز القرآن كما مر بنا في حديث داعي الدعاة الفاطمي، ويزعم أن في

---

[١] أنظر في هذه الاقتباسات وتحليلها كتاب من تاريخ الإلحاد في الإسلام ٧٥ – ١٨٨ .

[٢] راجعها في كتاب من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص١١١ .

[٣] من كتاب تاريخ الإلحاد في الإسلام ص١١٣ .

كلام الجاهليين ما هو أفصح منه وأبلغ، ويقول ابن الجوزي إنه بدأ فيه بالطعن في القرآن وبلاغته حتى لقد زعم –تهتاناً وزوراً كبيراً– أن به أخطاء لغوية.

ولعلن في ذلك ما يصور –من بعض الوجوه– الهجمات العنيفة التي كان يصوبها الملحدون في القرن الثالث الهجري إلى الإسلام والقرآن الكريم بل إلى الديانات عامة. ومن هنا نفهم السر في أن الخليفة المعتمد حلف الوراقين لسنة ٢٧٩ ألا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة[١]، فقد كان من المفلسفة والمتكلمين من يبطنون الإلحاد[٢] والزندقة ويدخلونهما على ما يصنفون من الكتب. وكان أهم من نقض على ابن الراوندي كفرياته معاصره أو الحسين عبد الرحيم بن محمد المعروف بالخياط، وقد نشر له المستشرق نيبرج كتابه "الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم"، وكذلك عسى بالرد عليه معاصره أبو علي[٣] محمد بن عبد الوهاب الجبائي. وكان أهم من ورث عن ابن الراوندي إلحاده وزندقته وطعنه على الدين الحنيف، بل على جميع الديانات الطبيب أبو بكر محمد[٤] بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٣٢٠ ، وكان كيمائياً ماهراً إلا أنه أتبع هواه وضل ضلالاً بعيداً إذ مضى على هدى ابن الراوندي وأشباهه ينكر النبوات وألف في ذلك كتابه "مخاريق الأنبياء" وسقط بدوره من يد الزمن، إلا أن أبا حاتم الرازي أورد في كتابه "أعلام النبوة" اقتباسات كثيرة منه رد عليها ونقضها نقضاً، وقد حللها الدكتور بدوي تحليلاً[٥] جيداً، وأظهر أنه يتابع في حججه وأدلته ابن الراوندي، فالعقل يكفي وحده لمعرفة الخير والشر، ولا حكمة ولا داعى لإرسال الأنبياء، وأيضاً لا معنى لأن يخص الله نفراً (يريد الأنبياء) من البشر لإرشادهم وتوجيههم، والناس جميعاً متساوون في الفطن والمواهب. وبرهانه المنكسر ما ذكره من أن الأنبياء متناقضون فيما بينهم، زاعماً أن اختلافهم لم يصدروا فيه عن الله جاهلاً بأنه كان من حكمة الله أن يحدث هذا الاختلاف تخفيفاً على الناس ورحمة بهم. وينقد الأديان عامة ويدخل فيها ديانات المجوسية، كما ينقد الكتب المقدسة، ويزعم أنها جميعها زاخرة بالتناقض، وأن خيراً منها للناس العلوم التي استنبطها الفلاسفة والعلماء بعقولهم. وهو خلط بين حاجات البشر المادية وحاجاتهم الروحية. ولعل في هذا كله ما

---

[١] طبري ٢٨/١٠ وابن تغري بردي ٨٠/٣ .

[٢] الفهرست ص ٤٨٧ .

[٣] يقول ابن الجوزي إنه نقض خمسة كتب له في مقدمتها الزمردة والدامغ . أنظر من تاريخ الإلحاط في الإسلام ص١٦٢ ويورد الكتاب هنا من نقضوا كتابه في تفصيل وإسهاب .

[٤] أنظر في ترجمته الفهرست ص٥١٨ وابن أبي أصيبعة والقفطي ص٢٧١ ودائرة المعارف الإسلامية .

[٥] أنظر كتاب من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص١٩٨ .

يصور نشاط الملحدين والزنادقة في العصر وكان لهم المعتزلة والمتكلمون بالمرصاد فنقضوا آراءهم وأوضحوا ما فيها من فساد وزيف ودحضوها دحضاً.

٥

الزهد والتصوف

يجب يتبادر إلى الأذهان من حديثنا عن الزندقة والشعوبية والمجون في العصر العباسي الثاني أنه كان عصراً ملحداً غلبت عليه العنصرية كما غلب المجون والإلحاد وانحلال الأخلاق فإن ذلك إنما كان يشيع في طبقات خاصة، أما المجون فكان يشيع في الطبقة المترفة، وأما الشعوبية فكانت تشيع بين نفر من أبناء الأعاجم، وبالمثل الزندقة كانت مقصورة على أفراد. ومن الخطر أن نجعل ذلك كله صفات عامة للمجتمع، فقد كان المجتمع مجتمعاً إسلامياً، وكانت الطبقة العامة فيه حسنة الإسلام تتمسك بفرائضه وسنته وشعائره، ولم تكن تعرف الترف ولا ما يجر إليه من مجون وانحلال وفساد في الأخلاق، إنما كانت تعرف الشظف والبؤس والحرمان، وكانت ساخطة سخطاً شديداً على المجان وعلى الشعوبيين والملحدين من أعداء الإسلام والعروبة.

وإذ كانت الحانات ودور النخاسة اكتظت في بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق بالخمر والقيان والضرب على الآلات الموسيقية، وشركتها في ذلك البساتين والأديرة من بعض الوجوه فإن مساجد سامراء وبغداد وغيرهما كانت مكتظة بالعباد والنساك وكانوا أكثر كثرة من المجان وأهل الفساد. وكان في كل مسجد حلقة، بل حلقات لوعاظ مختلفين كانوا لا يزالون يذكرون الناس بالله واليوم الآخر وأنهم معروضون يوم الحساب فإما إلى الجنة والنعيم وإما إلى النار والجحيم. واختلط الوعظ بقصص ديني كثير على نحو ما صورنا ذلك في كتاب العصر العباسي الأول، وكثر حينئذ النساك والزهاد في متاع الحياة الدنيا، وعاشوا معيشة كلها شظف وتقشف وتبتل وعبادة، واقرأ في تراجم الفقهاء والمحدثين لهذا العصر فستجدهم أو على الأقل ستجد كثرتهم وهم يعدون في العالم الإسلامي بالمئات إن لم يكن بالآلاف قد أخذوا أنفسهم بالانصراف عن متاع الحياة الدنيا، بل لكأنما تجردوا للجهاد في سبيل ذلك أسوة بزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم، منتظرين ما عند الله من النعيم الخالد الذي لا يزول. ويكفي أن نرجع إلى ترجمة واحد منهم مثل إبراهيم[1] بن إسحق الحربي، وكان من كبار المحدثين، وكان لا يأخذ على محاضراته في الحديث أجراً من أحد، إذ عزف عن كل متاع في الحياة، وعاش معيشة زاهدة

---

[1] راجع في ترجمته تاريخ بغداد ٢٧/٦ ومعجم الأدباء ١١٢/١ والأنساب للسمعاني ١٦٢ وصفة الصفوة ٢٢٨/٢ وشذرات الذهب ١٩٠/٢ والنجوم الزهراء ١١٦/٣ ويقال: كان يقاس بابن حنبل في علمه وزهده .

مبالغة في الزهد إلى أقصى حد، حتى إنه ليرفض في إباء مال يأتيه من خليفة أو صاحب سلطان أو جاه، ويروي أن المعتضد أرسل إليه بعشرة آلاف درهم مع بعض أتباعه، فردها، وعاد الرسول يقول له إن المعتضد يسألك أن تفرقها في جيرانك، فقال له: عافاك الله، هذا ما لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقته، قل لأمير المؤمنين إن تركتنا أقمنا وإلا تحولنا عن جوارك.

وظل يلزمه صداع خمساً وأربعين سنة بدون أن يخبر به أحداً، وقد أفنى من عمره ثلاثين سنة لا يأكل إلا رغيفاً واحداً في اليوم والليلة، إن جاءته به زوجته أو إحدى بناته أكله وإلا بقى جائعاً ظامئاً إلى الليلة الثانية. وهي درجة رفيعة في الزهد، وكان على غراره كثيرون من المحدثين والفقهاء يصومون الدهر ويعيشون على الكفاف بل على أقل من الكفاف كما يعيشون على العبادة والورع.

وأخذت تتسع في هذا العصر موجة التصوف، وكانت مقدماتها أخذت تظهر منذ أواخر القرن الثاني الهجري عند إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي صاحب اليد الطولى في مبدأ التوكل وإشاعته[١] بين أوائل المتصوفة ومعروف الكرخي الذي أشاع مبدأ المعرفة الإلهية وأنها غاية المتصوف وحدها لا النجاة من عذاب الآخرة[٢]، ويعرض القشيري في رسالته أقوالاً مختلفة في اشتقاق كلمة صوفي، وهل هي من الصوف لأنهم كانوا يلبسونه تمييزاً لهم من أهل الرفه والتنعم، أو هي من الصفاء أو هي من الصفة نسبة إلى أهل الصفة الذين كانوا ينقطعون للعبادة في المسجد لعهد الرسول عليه السلام، ولا يدلى القشيري برأي حاسم، وذهب البيروني إلى أنها مشتقة من كلمة صوفيا اليونانية بمعنى الحكمة[٣]. ويبدو أن أوجه الآراء الرأي القائل بأن الكلمة مشتقة من الصوف لأن كثيرين من الزهاد في القرن الثاني الهجري كانوا يلبسونه، وشاع لبسه بين المتصوفة بعد ذلك.

ومنذ أواسط القرن الماضي يعني المستشرقون بدراسة التصوف وبيان التأثيرات الأجنبية التي أثرت في نشأته وتطوره، وكان من أسبقهم إلى ذلك فون كريمر، وكان يذهب إلى أن التصوف يشتمل على عنصرين أساسيين، عنصر مسيحي وعنصر بوذي هندي، ويتضح العنصر الثاني –عنده– في فكرة وحدة الوجود التي تمثلها، كما يقول، الحلاج في أواخر القرن الثالث[٤] الهجري. وذهب نيكلسون فيما بعد إلى أن الحلاج لم يتمثل في هذه الفكرة لا هو ولا غيره من متصوفة

---

[١] النجوم الزاهرة ٢/٢١ .

[٢] في التصوف الإسلامي لنيكلسون ترجمة أبي العلا عفيفي وطبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ص٥ .

[٣] ما للهند من مقولة للبيروني (الطبعة الأوربية) ص١٦ .

[٤] أنظر نيكلسون في مبحثه عن الحلاج ومقدمة عفيفي .

القرن الثالث. وممن شدد على التأثير الأجنبي جولد تسيهر، إذ ربط بين التصوف وتعاليم الأفلاطونية الحديثة وما يندرج فيها من مذهب الفيض ووحدة الوجود، كما ربط بينه وبين البوذية[١] الهندية. وخفف من حدة القول بهذا التأثير الأجنبي ماسينيون في بحوثه عن الحلاج، إذ ذهب إلى أن التصوف نشأ من صميم الإسلام نفسه، وإن تأثر في الطريق بمؤثرات الثقافة الهيلينية التي كانت منتشرة في الشرق منذ ميلاد المسيح[٢]. وبالمثل خفف من حدة القول بالتأثير الأجنبي نيكلسون، وإن لاحظه مع مر الزمن، كما هو الشأن عند ذي النون وتأثره في رأيه بالأفلاطونية الحديثة إذ كان على علم بالحكمة اليونانية الشائعة في عصره، وأيضاً كما هو الشأن عند أبي يزيد البسطامي وتأثره في رأيه بالفلسفة الهندية الفارسية. على أن مضى في بحوثه يعلى من شأن التأثير الإسلامي في نشأة التصوف، ويقلل من أهمية التأثيرات الأجنبية، وكان أهم معول هدم به القول بهذه التأثيرات ما كان قد تبادر لكثير من الباحثين من إيمان أبي يزيد البسطامي والحلاج بنظرية وحدة الوجود، فقد نفاها عنهما، ولم يثبتها إلا منذ ابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨. وبذلك انتهى إلى القول بأن جميع الأفكار التي وصفت بأنها دخيلة على المسلمين ووليدة ثقافة أجنبية غير إسلامية إنما هي وليدة الزهد والتصوف اللذين نشآ في الإسلام وكانا إسلاميين في الصميم[٣].

وإذن فالتصوف إسلامي في جوهره وفي نشأته ونموه وتطوره، وهو الرأي العلمي الصحيح، ولكي نتصور التصوف في دقة في أثناء هذا العصر، يحسن أن نستعرض أئمته الذين غرسوا مبادئه وأحواله ومقاماته ومصطلحاته في نفوس العصور التالية، وأولهم الحارث[٤] بن أسد المحاسبي المتوفى سنة ٢٣٤ وقد نشرت له رسائل مختلفة، وهي تدل بوضوح على أنه جد في ربط التصوف بالشريعة على طريقة أهل السنة، وكان يعتنق مذهب الشافعي ويرى أن الرافضة خرجوا على حدود الإسلام وملمته، ولذلك يروى أنه لما مات أبوه وكان هو في عوز وإملاق في حين خلف أبوه ثروة طائلة رفض أن يأخذ منها درهماً، لأن أباه كان رافضياً، وقال: أهل ملتين لا يتوارثان. ومن أهم ما يميزه بين خلفائه ومعاصريه من المتصوفة أنه دعا في قوة إلى محاسبة النفس ومراقبتها ومجاهدتها وتزكيتها باتباع الكتاب والسنة، وهو أول من فرق بين التوكل على

---

[١] العقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسيهر (طبعة دار الكتاب المصري) ص١٣٦ وما بعدها .

[٢] راجع مقدمة عفيفي لكتاب نيكلسون السالف .

[٣] أنظر مقدمة عفيفي وكتاب في التصوف الإسلامي في مواضع مختلفة .

[٤] نشأ في البصرة ثم انتقل في شبابة إلى بغداد ، أنظر في ترجمته تاريخ بغداد ٨/٢١١ والأنساب للسمعاني ٥٠٩ وابن خلكان وطبقات الشافعية للسبكي ٢/٢٧٥ ومرآة الجنان ٢/١٤٢ والنجوم الزاهرة ٢/٣١٦ والتهذيب لابن حجر ٢/١٣٤ وكتاب طبقات الصوفية للسلمي (طبع باريس) ص٤٦ .

الله وبين الرضا بقضاء الله وأحكامه، وجعله –وتابعه في ذلك متصوفة العراق– من الأحوال التي لا تكتسب، على حين جعله متصوفة خراسان من المقامات[١]، ورفض أن يفضي التوكل إلى عدم التكسب، فلابد من السعي في الأرض سعياً ينال به الإنسان الفضل والثواب.

وكان يعاصره ذو النون[٢] المصري المتوفى سنة ٢٤٥ ويرى نيكلسون أنه الواضع الحقيقي لأسس التصوف، إذ هو –كما يقول ابن تغري بردي– أول من تكلم في مصر في الأحوال والمقامات، ويعمم ذلك نيكلسون، فيجعله لا أستاذ المصريين وحدهم في التصوف بل أستاذ المشارقة أيضاً، وينقل عن تذكرة الأولياء للجامي حديثة عن العارف والمعرفة، وفيه قسم المعرفة ثلاثة أقسام: قسماً مشتركاً بين عامة المسلمين، وقسماً خاصاً بالفلاسفة والعلماء، وقسماً خاصاً بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم. وبذلك فصل المعرفة الصوفية عن المعرفة العلمية والفلسفية، فالأولى قلبية، تنزع نحو القلب، وتعتمد على التجربة الحدسية، والثانية عقلية تعتمد على الأفكار كما تعتمد على المنطق. ومن هنا كان التصوف ليس علماً ولا فلسفة ولا مذهباً، وإنما هو أحوال ومقامات، ويقال إنه سئل كيف عرف ربه ؟ فقال: "عرفت ربي بربي ولوا ربي لما عرفت ربي"، وسئل عن الذكر، فقال: "هو غيبة الذاكر عن الذكر"، وقال: "ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عنهم بالله". وكأنه هو الذي وصل في قوة بين التصوف وعلم الباطن، أو قل هو الذي فسح فيه للباطن، وقد قال إنه مقصور على الخواص من أهل الله ومن هنا فرق دائماً بين الخواص والعلوم، ومن قوله: "توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة". وكان يقول: "إياك أن تكون بالمعرفة مدعياً" يقصد معرفة الصوفية القلبية القائمة على الإدراك الحدسي. ومن قوله أيضاً: "الصوفي من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق" وكان يقول إن العارف (الصوفي) لا يلزم ربه في حالة واحدة وإنما يلزمه في الحالات كلها. وكانت تجري في كلامه ألفاظ المحبة والوجد، وكان يقول علامة التوكل انقطاع المطامع. وكان يقول: "من علامات المحب لله متابعة حبيب الله في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسنته". وفي ذلك ما يدل بوضوح على أنه لم يحدث عنده أي انفصام بين التصوف والشريعة، فهو يكملها بمحتواه وممارساته العملية، بل هي لا يكون له قوام بدونها، وبدون ما شرعت من فرائض ونوافل وعبادة وتقوى.

---

[١] أنظر باب الرضا في الرسالة القشيرية .

[٢] راجع في ترجمة ذي النون وآرائه الفهرست ص٥١٧ وطبقات الصوفية للسلمي ص٢٣ ، وتاريخ بغداد ٣٩٣/٨ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٢١٧/٥ ومرآة الجنان لليافعي ١٤٩/٢ والنجوم الزاهرة ٣٢٠/٢ والطبقات الكبرى للشعراني ٥٩/١ وأخبار الحكماء للقفطي ١٨٥ وشذرات الذهب ١٠٧/٢ ورسالة القشيري في ص٩ وفي مواضع متفرقة ونيكلسون ص٧ وما بعدها .

وكان السري[١] السقطي المتوفى سنة ٢٥١ شيخ متصوفة بغداد وإمامهم في وقته، وكان تاجراً فهجر التجارة ولزم بيته وانقطع للعبادة، ويقال إنه أول من تكلم ببغداد في لسان التوحيد وحقائق الأحوال، أو هو بعبارة أخرى أول من تكلم في المقامات والأحوال هناك، وبذلك يكون أول تال لذى النون تحدث فيها حديثاً مستفيضاً. وكان يقول: "التوكل الانخلاع عن الحول والقوة" و: "من علامات المعرفة بالله القيام بحقوق الله"، وهو بذلك يصل بين التصوف والشريعة، بل يجعلها قوامه، ويوضح ذلك أنه سئل عن المتصوف من هو ؟ قال: "هو اسم لثلاثة معان، هو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعه ولا يتكلم بباطن عن علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب، ولا تحمله الكرامات من الله على هتك أستار محارم الله"[٢]، وهو يذكر الكرامات ولعله لم يكن يريد معناها الدقيق الذي عرف للكلمة فيما بعد وأن الله يجري على أيدي الأولياء ما يشبه معجزات الأنبياء. وكان يكثر من الحديث عن محبة الله منشداً:

من لم يبت والحب حشو فؤاده لم يدر كيف نفتت الأكباد

ويبدو أنه كان يأخذ نفسه بمجاهدات زهدية وتقشفية عنيفة.

وإذا كان ذو النون هو الذي أدخل في التصوف بقوة النزعة نحو المعرفة الإلهية، فإن أبا يزيد طيفور[٣] بن عيسى البسطامي المتوفى سنة ٢٦١ هو الذي أدخل فيه –على ما يظهر– فكرة الفناء في الذات العلية، وقد أثبت له نيكلسون كثيراً من الأقوال من مثل قوله: "للخلق أحوال ولا حال للعارف لأنه محيت رسومه وفنيت هويته بهية غيره، وغيبت آثاره بآثار غيره"، وقوله: "خرجت من الحق إلى الحق حتى صاح مني في: يا من أنت أنا ! فقد تحققت بمقام الفناء في الله". وروي من أقواله التي تنعكس عليها أفكار وحدة الوجود قوله: "سبحاني ما أعظم شاني" وقوله: "خرجت من بايزيديتي كما تخرج الحية من جلدها، ونظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد، لأن الكل واحد في عالم التوحيد". ويمكن أن يرد هذان القولان وما ساقه نيكلسون من أقواله له أخرى إلى فكرة الفناء. ومما نسبوه إليه أيضاً قصة معراجه إلى السماء وقد قصها العطار بالتفصيل إذ روي عنه قوله: "صعدت إلى السماء وضربت قبتي بإزاء العرش". ولا شك في أنها قصة منحولة عليه هي وأقواله التي قد تفهم منها فكرة وحدة الوجود على نحو ما أشار إلى ذلك

---

[١] راجع في ترجمة السقطي طبقات الصوفية للسلمي ص٤١ وابن خلكان وتاريخ دمشق لابن عساكر ٧١/٥ وطبقات الشعراني ٦٣/١ .

[٢] تهذيب ابن عساكر ٧٨/٦ وينيكلسون ص٢٩ .

[٣] انظر في ترجمته طبقات الصوفية للسلمي ص٦٠ وابن خلكان والرسالة للقشيري في مواضع مختلفة وطبقات الشعراني ٦٥/١ وميزان الاعتدال للذهبي ٣٤٦/٢ والنجوم الزاهرة ٣٥/٣ ونيكلسون ص٢٢ وما بعدها .

الذهبي في كتابه ميزان الاعتدال إذ قال: "وقد نقلوا عنه أشياء يشك في صحتها عنه، منها: "سبحاني" و: "ما في الجبة إلا الله" و: "ما النار ؟! لأستندن إليها غداً وأقول اجعلني لأهلها فداء، وما الجنة ؟! إنها لعبة صبيان. ونسب إليه أهل بلدته بسطام –في الجنوب الشرقي لبحر الخزر– أنه زعم أن له معراجاً إلى السماء كمعراج الرسول عليه السلام". ولعل في ذلك ما يدل على أنه وضعت على لسانه من قديم أقواله وقصص غريبة، وكأنه تحول شخصية أسطورية في تاريخ التصوف ورجاله، ويبدو أنه كانت تجري على لسانه شطحات وعبارات موهمة كثيرة أعدت لأن تصبح له هذه الشخصية، غير أنه مما لا ريب فيه أنه صاحب فكرة الفناء في الذات الإلهية، تلك الفكرة التي أخذت مكاناً مهماً في التصوف الإسلامي. ويبدو أنه أول من أدخل في التصوف فكرة السكر بجانب فكرة العشق الإلهي، وفي الرسالة القشيرية أن معاصره الصوفي يحيى بن معاذ كتب إليه: "سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبة الله" فأجابه: "غيرك شرب بحور السموات والأرض وما روي بعد ولسانه خارج من العطش، ويقول هل من مزيد"[١]، وكان ينكر ما يردده الناس عن كرامات الصوفية. وكان يؤمن بأن التصوف لا يقوم بدون الشريعة والمحافظة على فرائضها والصدوع بأوامرها ونواهيها[٢].

ونشعر أن معالم التصوف ومبادئه أخذت في الوضوح منذ أوائل النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، حتى لتنشأ طبقة تحاضر فيه مثل يحيى بن معاذ الذي ذكرناه آنفاً، ومثل أبي حمزة الصوفي المتوفى سنة ٢٦٩، وهو أول من تكلم على رءوس المنابر ببغداد في اصطلاحات الصوفية من صفاء الذكر وجمع الهمة والعشق والقرب والأنس[٣]، ومثل أبي سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ وهو أول من توسع في الكلام عن الفناء[٤]. ويظهر حينئذ حمدون[٥] القصار النيسابوري المتوفى عام ٢٧١ وقد ذهب بعيداً في تقشفه، إذ دعا مريديه إلى سلوك طريق الملامة بأن يتظاهروا باتخاذ أشياء ينكرها الشرع، حتى يتلومهم العوام من حولهم فلا يقفوا على حقيقة تصوفهم وإخلاصهم لله، ومنهم انتشر مذهب الملامتية بنيسابور، إذ يبدون في مظهر المذنبين دائماً، مما أعد للقعود –فيما بعد– عن النهوض بفرائض الشريعة. أما في هذا العصر

---

[١] الرسالة القشيرية ص١٤٦ وانظر شذرات الذهب ١٤٣/٢ .

[٢] أنظر ترجمته في ميزان الاعتدال ، ويقول الذهبي: ما أحلى قوله: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تفتروا به حتى تنظروا كيف هو عند الأمر والنهي وحفظ حدود الشريعة .

[٣] النجوم الزاهرة ٤٦/٣ .

[٤] طبقات الصوفية للسلمي ص٢٢٣ .

[٥] أنظر السلمى ص١١٤ وكتاب الملامتية والصوفية وأهل الفتوة لأبي العلا عفيفي .

فنجد المتصوفة دائماً يعلنون تمسكهم بها، حتى ليقول سهل ابن عبد الله التستري الصوفي المتوفى سنة ٢٨٣: "أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله تعالى، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق"[١] وفي رسالة القشيري أنه كان ينكر الكرامات إنكاراً شديداً.

وأهم صوفي ظهر بأخرة من القرن الثالث الجنيد[٢] المتوفى سنة ٢٩٧ وينعت بالقواريري الخراز، لأن أباه كان يبيع الزجاج وكان هو يبيع الخز، وأصله من نهاوند بالقرب من همذان، إلا أن مولده ومنشأه ببغداد، وهو ابن أخت السري السقطي وعنه أخذ الطريقة، وأخذها السري بدوره عن معروف الكرخي. وكان ورده في اليوم ثلثمائة ركعة وثلاثين ألف تسبيحه، وفي طبقات الصوفية للسلمي أنه كان يقول: "ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات"، ويقال إنه أقام عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع، وكان يصلى كل ليلة أربعمائة ركعة. وكان يقول: "طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة، ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به". وتردد على لسانه كلمتا الطريق والمريد، مما يدل على أنه أخذ يشيع منذ العصر العباسي الثاني نظام الطرق والمريدين في التصوف، فللإمام الصوفي طريقة، يحملها عنه مريدوه من تلاميذه وأتباعه وينشرونها في موطنه وغير موطنه من العالم الإسلامي. وأتاح هذا النظام البقاء لكثير من طرق الصوفية، وصبغها بصبغة جماهيرية شعبية، وإن كان قد رشح لأن يكون الارتباط في الطريقة بالإمام الصوفي نفسه لا بمبادئه وأفكاره، وبذلك أوجد صلة وثيقة بين الشيخ ومريديه وتلاميذه، فكانوا يأتمرون بتوجيهاته، وكانوا يحيطونه بهالة من الإجلال والتوفير، هيأت فيما بعد لأن تصبح لكل شيخ قداسته. وكان الجنيد يستخدم أسلوباً مليئاً بالمبالغات في الترغيب والترهيب زاخراً بالألفاظ الطنانة الكثيرة الإيهام والإيحاء، وأخذ عنه تلميذه الحلاج هذا الأسلوب وأصبح ميزة أساسية له في أقواله وأشعاره، وهو أسلوب كثرت فيه الشطحات، ولاحظ ذلك القدماء على الجنيد إذ نرى السراج في كتابه اللمع يعرض طائفة من شطحاته ويفسرها تفسيراً بيناً. وأشهر تلاميذ الجنيد الحسين بن منصور المشهور باسم الحلاج وسنعرض له بالحديث في غير هذا الموضع.

---

[١] السلمي ص٢٠٣ .

[٢] أنظر في ترجمة الجنيد تاريخ بغداد ٢٤١/٧ والرسالة القشيرية في مواضع مختلفة وابن خلكان والسلمي ص١٤١ وطبقات الشافعية للسكبي ٢٦٠/٢ ومرآة الجنان لليافي ٢٥١/٢ والنجوم الزاهرة ١٦٩/٣ وشذارت الذهب ٢٢٨/٢ .

ومن أهم الصوفيين المتأخرين في العصر الحكيم[١] الترمذي محمد بن علي بن الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يحاول صنع أسس فلسفية لعلم الكلام، غير أنه مضى يدرس التصوف وتعمق فيه كما تعمق في دراسة اتجاهات الشيعة، وعاش للتصوف يؤلف فيه كتباً كثيرة. ويقال إنه هو الذي أدخل بقوة نظرية الولاية في البيئات الصوفية وكل ما جرت إليه من إيمان بكرامات الصوفية أولياء الله وصفوته في خلقه، وقد ألف فيها كتاباً سماه ختم الولاية زعم فيه أن للأولياء خاتماً كما أن للأنبياء خاتماً وأن الولاية تفضل النبوة لقوله عليه السلام: "يغبطهم النبيون والشهداء" إذ لو لم يكن الأولياء أفضل منهم ما غبطوهم !! وذكر في الكتاب المذكور أن عيسى يعود في آخر الزمان، وبذلك يكون خاتم الأولياء، وثار عليه أهل بلدته "ترمذ" ففر إلى نيسابور وبها توفى. وقال السبكي: دافع عنه السلمي معتذراً عنه ببعد فهم الفاهمين. وعلى كل حال يعد الترمذي الحكيم أول من عمل على إشاعة فكرة الاعتقاد بولاية الصوفية وما جرت إليه من تصور الكرامات.

ومنذ أواخر القرن الثالث الهجري تلقانا ظاهرة جديدة في بيئات المتصوفة، فقد كان السابقون منهم لا ينظمون الشعر بل يكتفون بإنشاد ما حفظوه من أشعار المحبين، وهم في أثناء ذلك يتواجدون وجداً لا يشبهه وجد، أما منذ أبي الحسين النوري المتوفى سنة ٢٩٥ فإن صوفيين كثيرين ينتظمون الشعر معبرين به عن التياع قلوبهم في الحب آملين في الشهود مستعطفين متضرعين، مصورين كيف يستأثر حبهم لربهم بأفئدتهم استئثاراً مطلقاً، نذكر منهم سمنون أبا الحسين الخواص المتوفى سنة ٣٠٣ وأبا على الروذباري المتوفى سنة ٣٢٢ والشبلي دلف بن جحدر المتوفى سنة ٣٣٤ وجميعهم من تلامذة الجنيد.

وواضح مما تقدم أن العصر العباسي الثاني لم يكد ينتهي حتى تأصلت في التصوف فكرة المعرفة الإلهية ومحبة الله، كما تأصلت فكرة الصوفية وأولياء الله، وسنرى في موضع آخر كيف أن الحلاج أحاط الرسول عليه السلام بهالة قدسية تشبه الهالة التي يحيط بها المسيحيون المسيح عليه السلام، وكان لكل ذلك أثر عميق في حياة التصوف وتطوره على مر الأجيال.

---

[١] انظر في ترجمة الحكيم الترمذي طبقات الصوفية للسلمي ص٢١٦ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٤٥/٢ وطبقات الشعراني ١٠٦/١ ورسالة القشيري في مواضع مختلفة وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢١٨/٢ .